مواح لبيد – تفسير النووي

التفسير لمعالم التنزيل. المسفر عن وجوه محاسن التأويل.
المسمى
طبقا لمعناه مراح لبيد لكشف معنى قرآن مجيد. لجامعه العالم
النحرير. وعلم الفضل الشهير. المتحلى بكريم الشيم
ومهابة الأغرار. العلامة الشيخ محمد نووي
الجاوي سيد علماء الحجاز. نفع الله
تعالى به للمسلمين وجعلنا
وإياه من خيار أحبته
المقبولين
آمين

الجزء الثاني

سورة مريم

مكية، وهي ثمان وتسعون آية، وكلماتها تسعمائة واثنتان وستون، وحروفها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وحرفان.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كٓ هيعٓصٓ} وهو من المتشابه الذي انفرد الله تعالى بعلمه، وقيل: هو ثناء من الله على نفسه، وهو وصفه تعالى بأنه كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بأمرهم، صادقٍ في وعده. {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ}، فإن جعلت {كهيعص} اسماً للسورة على ما عليه اتفاق أكثر العلماء، فهي مبتدأ وخبره {ذُكِرَ} أي المسمى {كهيعص} {ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبّكَ} {عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ}، أي إصابة الله رحمته عبده زكريا. {إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيّاً}، فإنه أدخل في الإخلاص، وأبعد من الرياء، وأقرب إلى الخلاص، عن لوم الناس على طلب الولد في زمان الشيخوخة. {قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى} أي ضعف بدني، وإنما أسند الضعف إلى العظم لأنه دعامة الجسد، فإذا ضعف كان غيره أضعف. {وَ ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْباً}، أي أخذ رأسي شمطاً، وقد صار مثل شواظ النار. {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّاً} أي ولم أكن بدعائي إياك يا رب خائباً في وقت من أوقات هذا العمر الطويل،

بل كلما دعوتك استجبت لي وقد توسّل سيدنا زكريا عليه السلام، بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة بعد ذكر ما يتسبب للرأفة من كبر السن، وضعف الحال. {وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَالِىَ}، أي الذين يخلفونني في السياسة، وفي القيام بأمر الدين. {مِن وَرَآئِى}، أي بعد موتي، وهم بنو عمه عليه السلام، وكانوا أشرار بني إسرائيل، فخاف عليه السلام أن لا يحسنوا خلافته في أمته، ويبدّلوا عليهم دينهم، وقوله: {مِن وَرَائِى} متعلق بمحذوف أي فعل الموالي، أو جور الموالي لا ب «خفت» لفساد المعنى. {وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا} أي لا تلد من حين شبابها. {فَهَبْ لِى مِن لَّدُنْكَ}، أي أعطني من محض فضلك الواسع، وقدرتك الباهرة. {وَلِيّاً} أي ولداً من صلبي. {يَرِثُنِى}، من حيث العلم والدين والنبوة. {وَيَرِثُ} الملك. {مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ}، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام، لأن زوجة زكريا هي أخت مريم، وكانت من ولد سليمان بن داود، من ولد يهوذ بن يعقوب. أما زكريا فهو من ولد هارون أخي موسى، وهما من ولد لاوى بن يعقوب بن إسحاق.

وقرأ أبو عمرو والكسائي «يرث» في الكلمتين بالجزم على جواب الأمر، والباقون بالرفع على أنه صفة.{وَ ٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً} أي مرضياً عندك قولاً وفعلاً. قال تعالى بواسطة الملك جبريل: {يٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ}، أي ولد يرث العلم والنبوة في حياتك فإنه قتل قبل موت أبيه { سْمُهُ يَحْيَىٰ} لإحيائه رحم أمه بعد موته بالعقم. {لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً}، أي شريكاً له في الإسم حيث لم يكن قبل يحيى أحد يسمّى بيحيى، وقيل: أي شبيهاً في الفضل والكمال، فإنه لم يعص ولم يهم بمعصية من حال الصغر، وأنه صار سيّد الشهداء على الإطلاق. {قَالَ} زكريا: {رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ} أي من أين يكون لي ولد، {وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِراً} أي والحال أنه قد صارت امرأتي لم تلد قط، {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً}، أي يبوساً. وقرأ أبي ابن كعب وابن عباس «عسياً» بالسين غير المعجمة.

{قَالَ} أي الله تعالى: {كَذَٰلِكَ} أي الأمر، ذلك الوعد، من خلق غلام منكما وأنتما على حالكما، {قَالَ رَبُّكَ هُوَ}، أي خلق يحيى منكما على حالتكما، {عَلَىَّ} خاصة {هَيِّنٌ}، وإن كان في العادة مستحيلاً. {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً}أي وقد أوجدتك يا زكريا من قبل يحيى، والحال أنك إذ ذاك عدم بحت.

وقرأ حمزة والكسائي «خلقناك». {قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِى ءَايَةً}، أي علامة تدلني على حصول حبل امرأتي {قَالَ} أي الله تعالى: {ءَايَتُكَ} على تحقق المسؤول {أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ}، أي أن لا تقدر

على أن تكلم الناس {ثَلٰثَ لَيَالٍ} مع أيامهن، {سَوِيّاً}، أي حال كونك سليم الجوارح، لم يحدث بك مرض ولا خرس. {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ}، أي من المصلى، وهم اجتمعوا ينتظرون فتح الباب ليصلّوا فيه بإذنه على العادة، فخرج إليهم للإذن وهو لا يتكلم، متغيراً لونه فأنكروه، فقالوا: ما لك يا نبي الله {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ} أي أشار إليهم، {أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيّاً}، أي صلوا صلاة الفجر، وصلاة العصر.

قال الله تعالى ليحيى بعدما بلغ: {يٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتٰبَ بِقُوَّةٍ}، أي اعمل بما في التوراة بجدّ، {وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ} أي الفهم في التوراة والفقه في الدين. {صَبِيّاً}، أي في صغره. وعن بعض السلف من قرأ القرآن قبل أن يبلغ، فهو ممن «أوتي الحكم صبياً». روي أنه عليه السلام دعاه الصبيان إلى اللعب فقال: ما للعب خلقنا. {وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً}، أي وأعطينا تعظيماً من عندنا على يحيى، حيث جعلناه نبياً وهو صغير، وتشريفاً له.

ويقال: وأعطينا يحيى رحمة من لدنّا على زكريا وتزكية له، عن أن يصير مردود الدعاء. ويقال: وأعطينا يحيى تعطفاً منا على أمته لعظم انتفاعهم بإرشاده، وتوفيقاً للتصدق عليهم، وتطهيراً منا عن الالتفات لغيرنا، {وَكَانَ تَقِيًّا}. بطبعه، ومن جملة تقواه، أنه كان يتقوّت بالعشب وكان كثير البكاء، فكان لدمعه مجار على خدّيه. {وَبَرًّا بِوٰلِدَيْهِ}، أي لطيفاً بهما، محسناً إليهما. {وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً} أي متكبراً في دينه. {عَصِيّاً}، أي عاصياً لربه، عاقاً بوالديه. {وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ}، أي أمان من الله تعالى على يحيى. {يَوْمَ وُلِدَ}، من أن يناله الشيطان. {وَيَوْمَ يَمُوتُ}، من فتنة القبر، {وَيَوْمَ يُبْعَثُ}، من القبر {حَياً}، من هول القيامة، وهذا تنبيه على كونه عليه السلام من الشهداء. {وَ ٱذْكُرْ}، يا أكرم الرسل للناس، {فِى ٱلْكِتٰبِ} أي هذه السورة {مَرْيَمَ} أي قصتها، {إِذِ ٱنتَبَذَتْ} أي اعتزلت، {مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً} أي شرقي بيت المقدس، وشرقي دارها، لتتخلى هناك للعبادة. {فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِم حِجَاباً} أي فأرخت لأجل منع رؤية أهلها ستراً لتغتسل من حيضها، {فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَآ رُوحَنَا} رسولنا جبريل، {فَتَمَثَّلَ لَهَا} بعد فراغها من الاغتسال، وبعد لبسها ثيابها، {بَشَراً سَوِيّاً} أي لم ينقص من الصورة البشرية شيئاً. وكان موضعها المسجد، فإذا حاضت تحّولت إلى بيت خالتها، وإذا طهرت عادت إلى المسجد، فلما طهرت وهي في مغتسلها، أتاها جبريل بعد لبسها ثيابها في صورة آدمي شاب أمرد، وضيء الوجه، جعد الشعر، كامل البدن لم ينقص من حسان نعوت الآدمية شيئاً. وقيل: تمثّل في صورة ترب لها اسمه يوسف،

من خدم بيت المقدس، لتستأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته تعالى،
{قَالَتْ} أي مريم: {إِنِّيۤ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً} أي مطيعاً لله، يرجى منك أن تتقي الله، ويحصل ذلك بالاستعاذة به، فإني عائذة به منك.
وقيل: كان في ذلك الزمان، رجل فاجر اسمه تقي، يتبع النساء، فظنت مريم أن ذلك المشاهد هو ذلك التقي، فمن ذلك تعوذّت منه، وخصّت الرحمٰن بالذكر ليرحم ضعفها وعجزها عن دفعه. {قَالَ} لها جبريل: {إِنَّمَآ أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ} الذي استعذت به، {لأَهَبَ لَكِ غُلَٰماً زَكِيّاً}، أي لأكون سبباً في هبة ولد طاهر من الذنوب، بالنفخ في الدرع.
قرأ نافع وأبو عمرو «ليهب» بياء مفتوحة بعد اللام، أي ليهب الرب لك ولداً ذكراً، مترقياً من سن إلى سن، على الخير. {قَالَتْ} مريم لجبريل: {أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ} أي من أين يكون لي ولد كما وصفت، والحال أنه لم يباشرني رجل بنكاح، {وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً} أي فاجرة تبغي الرجال. {قَالَ} لها جبريل: {كَذَٰلِكَ} أي الأمر كما قلت لك، {قَالَ رَبُّكَ} الذي أرسلني إليك {هُوَ} أي هبة الولد من غير أن يمسك بشر أصلاً. {عَلَىَّ} خاصة {هَيِّنٌ} وإن كان مستحيلاً عادة، لأني لا أحتاج إلى الوسائط، {وَلِنَجْعَلَهُ} أي وهب الولد من غير أب، {ءَايَةً لِّلنَّاسِ} أي برهاناً لهم يستدلون به على كمال قدرتنا نفعل ذلك.
وبهذا إتمام الأنواع الأربعة في خلق البشر، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر وأنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية البشر من ذكر وأنثى معاً. {وَرَحْمَةً}، عظيمة كائنة {مِّنَّا} عليهم يهتدون بهدايته، {وَكَانَ}، أي خلق الولد بلا أب، {أَمْراً مَّقْضِيّاً} أي لا يتغيّر. فلو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً وهو محال. وجميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء إلى واجب الوجود، وإذا كان الأمر كذلك، فلا فائدة في الحزن، وهذا هو سر قوله صلى الله عليه وسلم: «من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب». {فَحَمَلَتْهُ} أي فنفخ جبريل في طوق قميصها نفخة وصلت إلى فرجها، ودخلت منه جوفها فحملته في الحال، {فَٱنتَبَذَتْ بِهِ} أي فاعتزلت وهو في بطنها، {مَكَاناً قَصِيّاً}، أي بعيداً من الناس.
قال وهب: إن مريم لما حملت بعيسى، كان معها ابن عم لها يقال له: يوسف النجار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد، ولا يعلم في

أهل زمانهما أحد أشد عبادة منهما. وأول من علم حمـل مريـم هـو يوسف، فتحيَّر في أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر عبادتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قـط. وإذا أراد أن يبرِّئهـا رأى الـذي ظهـر بهـا مـن الحمل.

فأول ما تكلم به أن قال: قد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانه، فغلبني ذلك، فرأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري، فقالت: قل قولاً جميلاً. قال: أخبريني يا مريم، هـل ينبـت زرع بغير بذر؟ وهل تنبت شجرة من غير غيث؟ وهل يكون ولد مـن غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يـوم خلقـه مـن غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة مـن غيـر غيـث؟ وبالقـدرة جعـل الغيث حياة الشجر، بعد ما خلق كل واحد منهما على حدة، أو تقول أن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حـتى اسـتعان بالمـاء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها.

فقال يوسف: لا أقول هذا ولكني أقول: إن الله قادر على ما يشاء، فيقول له: كن فيكون. فقالت لـه مريـم: ألـم تعلـم أن اللـه تعالى خلق آدم وامرأته مـن غيـر ذكـر ولا أنـثى؟ فعنـد ذلـك زالـت التهمة عن قلبه.

وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضـعف عليهـا بسبب الحمل، وضيق القلب، فلما دنت ولادتها، أوحى الله إليهـا أن اخرجي من أرض قومك، فخرجت أقصى الدار.

{فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَـاضُ} أي فألجأها وجـع الـولادة {إِلَـىٰ جِـذْعِ ٱلنَّخْلَةِ} أي إلى أصل نخلة يابسة لا رأس لهـا، وكـان الـوقت شـتاء شديد البرد، فلما اعتمـدت عليـه بصـدرها اخضـر، وأطلـع الجريـد، والخـوص، والثمـر رطبـاً فـي وقـت واحـد، كمـا أن حمـل عيسـى وتصويره وولادته في وقت واحد. وكـأن اللـه أرشـدها إلـى النخلـة ليريها من آياته ما يسكن روعتها، وليطعمها الرطب، الذي هو أشـد الأشياء موافقـة للنفسـاء فهـو خرسـة لهـا، ولأن النخلـة مـن أقـل الأشجار صبراً على الـبرد، ولأنهـا لا تثمـر إلا عنـد اللقـاح مـن ذكـر النخل، وإذا قطعت رأسها ماتت. فكأنه تعالى قال: كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر، فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقـاح. ثـم إنـي أظهـر الرطب من غير اللقاح، ليدل ذلك على جواز ظهور الولـد مـن غيـر ذكر فحملها بمجرد هزها أنسب شيء بإتيانهـا بولـد مـن غيـر والـد، {قَـالَتْ} لمـا خـافت أن يظـن بهـا السـوء فـي دينهـا، فيقـع فـي المعصية من يتكلم فيها وهي راضية بما بشَّرها به جبريل: {يا} أي

أنبهك يا مخاطب، {يٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هٰذَا}، الوقت الـذي فيـه الأمـر العظيم.
وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي «مِتُ» بكسر الميم. والباقون بالضم. {وَكُنـتُ نَسْـياً}، أي شـيئاً تافهـاً لا يعتـدّ بـه أصـلاً كخرقـة الطمث، ونحوها.
وقرأ حفص وحمزة وابن وثاب والأعمش بفتح النون، والباقون بالكسر. وقرأ محمد بن كعب القرظي «نسأ» بـالهمز وبهمـا، وهـو الحليب المخلوط بالماء الكـثير ينسـاه أهلـه لقلتـه واسـتهلاكه فـي الماء، {مَّنسِيّاً} أي متروكاً لـم يـذكر بالبـال، وهـو نعـت للمبالغـة. وهذا جرى على عادة الصالحين عنـد اشـتداد الأمـر عليهـم، فـإنهم يقولون مثل ذلك.
كما روي عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال: طـوبى لك يا طائر تقع على الشجرة، وتأكـل مـن الثمـر وددت أنـي ثمـرة ينقرها الطائر.
وعن عمر أنه أخذ تبنة من الأرض فقال: يا ليتني هذه التبنة ولم أك شيئاً. وعن علي أنه قال يوم الجمل: ياليتني متّ قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وعن بلال أنـه قـال: ليـت بلالاً لـم تلـده أمـه. وقـرأ الأعمش: «منسياً» بكسر الميم اتباعاً للسين. {فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَـآ أَلاَّ تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً}.
وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي: ب «من» الجـارة، أي فناداها جبريل من مكان أسفل منها تحـت الأكمـة، أي لا تحزنـي يـا مريم على ولادة عيسى، قد جعل ربك بمكان أسفل منك، أو قريب منك نهراً صغيراً، أو إنساناً شريفاً جليلاً.
ويدل على ذلك قراءة ابن عيسى، فناداها ملـك مـن تحتهـا، ويقال: فناداها المولود كائناً من تحت ذيلها، أي لا تحزنـي يـا أمـي، قد جعل ربك تحتك جدولاً يجـري، ويمسـك بـأمرك، أو نبيـاً مرتفـع القدر. وقرأ الباقون ب «من» الموصولة.
وقرأ زر وعلقمة «فخاطبها» من تحتها بفتح الميم، أي فناداها عيسى الذي كان تحت ذيلها أي لا تحزني قد جعل ربك تحتك رئيساً عزيزاً لا يكاد يوجد له نظير أو جدولاً بضرب جبريل الأرض برجله.
ويقال: فناداها جبريل من تحتها يقبل الولد كالقابلـة، أو مـن تحت النخلة بأن لا تحزني، قـد جعـل ربـك قربـك عيـن مـاء عـذب، تعظيماً لشأنك فإن اللـه تعـالى أرسـل جبريـل إليهـا ليناديهـا بهـذه الكلمات. كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تـذكيراً لهـا مـا تقدم من أصناف البشارات، أو يقال: إن الله تعـالى أنطـق عيسـى

لها حين وضعته تطييباً لقلبها، وإزالة للوحشة عنها، حتى تشاهد في أول الأمر ما بشّرها به جبريل من علوّ شأن ذلك الولد.

كما قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلّمها لما علمت أنه ينطق، فما كانت تشير إلى عيسى بالكلام. وحمل فاعل «نادى» على عيسى أقرب {وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ} أي حركّي أصل النخلة تحريكاً عنيفاً إلى جهتك، {تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ} أي تسقط النخلة عليك إسقاطاً متواتراً بحسب تواتر الهز، {رُطَباً جَنِيّاً} أي طرياً استحق أن يجنى.

وقرأ حمزة بفتح التاء والسين مخففة، وفتح القاف. وقرأ حفص بضم التاء، وكسر القاف. والباقون بفتح التاء، وتشديد السين، وفتح القاف،

{فَكُلِى وَ ٱشْرَبِى} أي فكلي من الرطب، واشربي من النهر، أو كلي من الرطب، واشربي من عصيره. {وَقَرِّى عَيْناً} أي طيبي نفساً بولدك عيسى، فالعين إذا رأت ما يسّر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره، وأن دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ولذلك يقال: للمحبوب قرة العين، وللمكروه سخنة العين. {فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلبَشَرِ أَحَداً فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً}، أن فإن تري يا مريم أحداً من الآدميين فيسألك عن ولدك، فقولي له إن استنطقك: إني نذرت للرحمن صمتاً فلن أكلم اليوم آدمياً، بعد أن أخبرتك بنذري وإنما أكلم الملائكة، وأناجي ربي. وإنما منعت مريم من الكلام ليكون عيسى المتكلم عنها، فيكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها، ولكراهة مجادلة السفهاء. {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ} أي فجاءتهم مع ولدها عيسى حاملة له وهو ابن أربعين يوماً.

روي عن ابن عباس أن يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً حتى طهرت من النفاس، ثم حملته إلى قومها، فكلّمها عيسى في الطريق، فقال: يا أماه أبشري فإني عبدالله ومسيحه. فلما دخلت على أهلها ومعها الصبي بكوا وحزنوا وكانوا أهل بيت صالحين. {قَالُواْ} مؤنبين لها: {يٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً}، أي لقد فعلت شيئاً منكراً عظيماً، {يٰأُخْتَ هَٰرُونَ}، أي يا شبيهة هارون في العبادة؛ وكان هارون هذا رجلاً صالحاً من أفضل الناس من بني إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح وهذا لمّا مات تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمّون هارون تبركاً به وباسمه. والمراد أنك يا مريم كنت في الزهد كهارون، فكيف صرت هكذا {مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ}، أي ما كان أبوك عمران رجلاً زانياً، {وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً}، أي وما كانت أمك حنة امرأة

فـاجرة {فَأَشَـارَتْ}، مريـم {إِلَيْـهِ}، أي إلـى عيسـى أن كلمـوه، {قَالُواْ} منكرين لجوابها: {كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ}، أي في الحجر أو في السرير {صَبِيّاً} أي صغيراً ابن أربعين يوماً.

روي أن عيسى كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع، وأقبل عليهـم بـوجهه، واتكـأ علـى يسـاره، وأشـار بسـبابة يمينـه، فتكلـم عيسى {قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ}، وإنما نص عيسى على إثبـات عبوديـة نفسه، لأن إزالة التهمة عن الله تعالى، تفيد إزالة التهمـة عـن الأم، لأن الله تعالى لا يخص الفاجرة بولد في هـذه الدرجـة العاليـة. أمـا التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا يفيد إزالـة التهمـة عـن اللـه تعـالى، فكان الاشتغال بذلك أولى. وقد وصف عيسى عليه السـلام نفسـه بصـفات ثمانيـة: أولهـا: العبوديـة، فـاعترف بهـا لئلا يتخـذوه إلهـاً. وآخرها: تأمين الله له في أخـوف المقامـات، وكـل هـذه الصـفات تقتضي تبرئة أمه. {ءَاتَانِىَ ٱلْكِتَـٰبَ}، أي علمنـي التـوراة والإنجيـل فـي بطـن أمـي، {وَجَعَلَنِـى نَبِيّـاً} بعـد الخـروج مـن بطـن أمـي، {وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً} أي نفاعاً معلماً للخير، {أَيْنَ مَا كُنـتُ}، أي فـي أي مكان كنت. روى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم قـال: «سلمت مريم عيسى إلـى الكتـاب، فقـالت للمعلـم: أدفعـه إليـك على أن لا تضربه، فقال له المعلم: اكتب. فقال: أيّ شيء أكتـب؟ فقال: اكتب أبجد. فرفـع عيسـى عليـه السـلام رأسـه فقـال: هـل تدري ما أبجد؟ فعلاه بالدرة ليضربه، فقـال: يـا مـؤدب لا تضـربني، إن كنت لا تدري فاسألني فإني أعلمك الألـف مـن آلاء اللـه، والبـاء من بهاء الله، والجيم من جمـال اللـه، والـدال مـن أداء الحـق إلـى الله». {وَأَوْصَانِى بِٱلصَّـلَوٰةِ وَٱلزَّكَـوٰةِ} أي أمرنـي بإقامـة العبوديـة وتطهير النفس عن الصفات الذميمة. {مَا دُمْـتُ حَيّـاً}، فـي الـدنيا ليكون ذلك حجة على من ادعى أنه عليه السـلام إلـه، لأنـه لا شـك في أن من يعبد إلهاً ليس بإله، والله تعالى صيّره حين انفصـل عـن أمه عاقلاً. {وَبَرّاً بِوَالِدَتِى} أي وكلفني براً بأمي، وهذا إشارة إلـى غيـر تنزيـه أمـه عـن الزنـا، إذ لـو كـانت زانيـة لمـا كـان الرسـول المعصوم مأموراً بتعظيمها. {وَلَـمْ يَجْعَلْنِـى جَبَّـاراً}، أي متعاظمـاً. {شَقِيّاً} أي عاصياً لله، عنيداً له لفرط التكبر، بل جعلني متواضعاً. وكان من تواضعه أنه كان يأكل ورق الشجر، ويجلس على الـتراب، ولم يتخذ له مسكناً. وروي أن عيسى عليه السلام، قال: قلبي ليـن وأنا صغير في نفسي. {وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ} أي الأمـان مـن اللـه علـي، {يَوْمَ وُلِدْتُّ}، أي حين ولدت من لمزة الشيطان، {وَيَوْمَ أَمُـوتُ}، أي حين أموت من ضغطة القبر، {وَيَوْمَ أُبْعَثُ} من القبر، {حَيّـاً}. وإنما خصّ هذه المواضع لكونها أخوف مـن غيرهـا. {ذَٰلِـكَ عِيسَـى

ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ}، أي عيسى بن مريم كلمة الله، فالحق اسم الله، أو المعنى خبر عيسى ابن مريم خبر الحق، فعيسى عطف بيان.

وقرأ عاصم وابن عامر قول الحق بالنصب على المدح إن فسّر بكلمة الله فحينئذ الوقف في مريم وقف كاف وإن فسّر بالقول الصدق، كان مصدراً مؤكداً لقال: إني عبدالله، ف «عيسى» خبر المبتدأ وعلى قراءة النصب كان اسم الإشارة راجعاً لمن بينت نعوته الجليلة. {ٱلَّذِى فِيهِ}، أي في عيسى {يَمْتُرُونَ}، أي يتنازعون. فيقول اليهود: هو ساحر. ويقول بعض النصارى: هو ابن الله. ويقول بعضهم: هو الله. ويقول: بعضهم هو شريكه.

{مَا كَانَ للَّهِ}، أي ما صحّ له تعالى، {أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ}، لأنه يلتزم من اتخاذه ولداً الحاجة، وهو نقص، {سُبْحَٰنَهُ}، أي تنزه الله عن ذلك، {إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}. أي إذا أراد الله أن يحدث أمراً من الأمور، فإنما يريده ويعلق قدرته به، فيكون حينئذ بلا تأخير. وقرأ ابن عامر بنصب «يكون» على الجواب. {وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ}.

قرأ ابن عامر والكوفيون بكسر «إن» عطف على قوله: «إني عبدالله» أو على الاستئناف، ويؤيده ما قرأه أبي «إن الله» بالكسر بغير واو. وقرأ أبو عمرو والمدنيون بالفتح على حذف حرف الجر متعلقاً بما بعده، أي ولأن الله أو بسبب أنه تعالى ربي وربكم فاعبدوه. {هَٰذَا} التوحيد ونفي الولد والزوجة الذي أمرتكم به، {صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ}، يوصل إلى الجنة ورضا الله تعالى.

{فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ}، أي اختلف النصارى في شأن عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء. فأخرج كل قوم عالمهم، فأخرج منهم أربعة نفر، فقال أحدهم: هو الله تعالى هبط إلى الأرض، فأحيا من أحيا وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء، وهم: اليعقوبية. فقالت الثلاثة كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه. فقال: هو ثالث ثلاثة الله إله، وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية، ملوك النصارى، ولذلك سموا ملكانية. فقال الرابع: كذبت، بل هو عبدالله، وروحه، ورسوله، وكلمته، فخصمهم، وقال: أما تعلمون أن عيسى كان يطعم، وينام، وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك، وهم المسلمون. وكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال، فاقتتلوا وغلبوا على المسلمين. فذلك قول الله تعالى: {حَقّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ} (آل عمران: 12) فصاروا أحزاباً. وذلك قوله تعالى:

{وَ ٱخْتَلَفَ ٱلاْحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ} فاختلفوا فيه، وهذا معنى قوله تعالى: { لَّذِى فِيهِ يَمْتُرُونَ} {فَوَيْلٌ} أي فشدّة عذاب، {لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي اختلفوا في شأن عيسى، {مِن مَّشْهدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، أي من حضور هول الحساب، والجزاء يوم القيامة، أو من مكان الحضور في الحساب وهو الموقف، أو من وقت حضوره، أو من شهادة ذلك اليوم عليهم، وهو شهادة الملائكة والأنبياء، وشهادة ألسنتهم وأيديهم، وأرجلهم بالكفر وسوء الأعمال، أو من وقت شهادة يوم عظيم الهول أو من مكانها. {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، أي أن أسماعهم وأبصارهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء، جدير بأن يتعجب منهما بعدما كانوا صماً وعمياناً في الدنيا. {لَكِنِ ٱلظَّلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَلٍ مُّبِينٍ}، أي لكن الكافرون في الدنيا في ضلال مبين، حيث تركوا النظر بالكلية، وهم في الآخرة يعرفون الحق. {وَأَنْذِرْهُمْ}، أي خوف يا أشرف الخلق، كفار مكة {يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ}، أي يوم الندامة، {إِذْ قُضِىَ ٱلاْمْرُ} أي فرغ من الحساب ببيان أمر الثواب والعقاب، فيندم في ذلك اليوم الناس، المسيء على إساءته في الدنيا، والمحسن على قلة إحسانه فيها.

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم، سئل عن قوله تعالى: {إِذْ قُضِىَ ٱلاْمْرُ}، فقال: «حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح، والفريقان ينظران فينادي المنادي: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح، وأهل النار غماً إلى غم». و «إذ» بدل من «يوم الحسرة» أو ظرف ل «الحسرة»، و «يوم الحسرة» مفعول به، أي خوفهم نفس ذلك اليوم. {وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}، أي أنذرهم في حال كونهم في جهلة عن ذلك اليوم، وفي حال كونهم لا يصدقون به. {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلاْرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا}، أي إنا لا ندع في الأرض شيئاً من عاقل وغيره ونسلب جميع ما في أيديهم {وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} أي وإلى حكمنا يردّون للجزاء، وهذا تخويف عظيم للعصاة.

{وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ}، أي واتل على كفار مكة قصة إبراهيم في هذه السورة، فإنهم ينتسبون إليه عليه السلام، فعساهم باستماع قصته يتركون ما هم فيه من القبائح. {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً} أي يبلغ الصدق في أقواله، وأفعاله وأحواله. {نَّبِيّاً}، رفيع القدر عند الله، وعند الناس، فلا رفعة أعلى من رفعة من جعله الله واسطة بينه، وبين عباده. {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ}، آزر، متلطفاً في الدعوة: {يٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ}، ثناءك عليه، {وَلاَ يَبْصِرُ}، خشوعك بين يديه، {وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً}، أي ولا يقدر على أن

يكفيك شيئاً من جلب نفع، أو دفع ضرّ. {يٰأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى}، من الله، {مِنَ ٱلْعِلْمِ}، أي علم الوحي، {مَا لَمْ يَأْتِكَ}، منه، {فَٱتَّبِعْنِىۤ}، بالتوجه إلى الله، {أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً}، أي طريقاً موصلاً إلى أسنى المطلب، منجياً عن المعاطب. {يٰأَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطٰنَ}، فإن عبادتك للأصنام عبادة له، إذ هو الذي يزيّنها بوسوسته. {إِنَّ ٱلشَّيْطٰنَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً}، فطاعة العاصي عصيان، والعصيان يوجب العذاب.

{يٰأَبَتِ إِنِّىۤ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمٰنِ}. إن لم تؤمن به، {فَتَكُونَ لِلشَّيْطٰنِ وَلِيّاً} أي قريناً في العذاب.

روي عن أبي هريرة أنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام، أنك خليلي، فحسّن خلقك، ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسّن خلقه، أن أظلّه تحت عرشي. وأن أسكنه حظيرة قدسي، وأن أدنيه من جواري». {قَالَ} آزر: {أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِى}، أي أمعرض أنت عن آلهتيٰ {يٰإِبْرٰهِيمُ}، أنكر آزر نفس الانصراف عن الأصنام مع نوع من التعجب، كان الانصراف عنها مما لا يصدر من العاقل. {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ}، عن مقالتك هذه، {لأَرْجُمَنَّكَ}، أي لأقتلنك، أي لأظهرن، أمرك للناس ليقتلوك، وهذا تهديد عما كان إبراهيم عليه من العظة. {وَ ٱهْجُرْنِى مَلِيّاً} أي تباعد عني لكيلا أراك زماناً طويلاً.

{قَالَ} إبراهيم: {سَلٰمٌ عَلَيْكَ}، وهذا توادع ومتاركة، أي لا أشافهك بما يؤذيك بعد. {سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى}، أي أدعو لك ربي أن يهديك إلى الإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر طلب التوفيق للإيمان المؤدي للمغفرة. {إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيّاً}، أي بليغاً في البرّ والألطاف. {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ}، أي وأترككم وما تعبدون من الأصنام، بالارتحال من بلادكم. {وَأَدْعُو رَبِّى}، أي أعبده وحده. {عَسَىۤ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى}، أي بعبادته، {شَقِيّاً}، أي ضائع العمل كما ضاع عملكم بعبادة الأوثان. فارتحل سيدنا إبراهيم من كوثي إلى الأرض المقدسة. {فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ}، أي فلما فارقهم إبراهيم في المكان في طريقتهم من عبادة الأوثان وأبعد عنهم إلى الأرض المقدسة، والتشاغل بالعبادة، {وَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ}، يأنس بهما لأنه عاش حتى رأى يعقوب. {وَكُلاًّ} أي كل واحد منهم {جَعَلْنَا نَبِيّاً}، ينبئهم الله تعالى بعلوم المعارف، وهم ينبّئون الخلق بالله وبالإسلام. {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِّن رَّحْمَتِنَا}، المال، والجاه والأتباع، والذرية الطيبة. {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً}، أي جعلنا لهم ثناءً

صادقاً يفتخر بهم الناس، ويثنون عليهم، ويذكرهم الأمم كلها إلى يوم القيامة، بما لهم من الخصال المرضية.

وتقول هذه الأمة في الصلوات الخمس: كما صلّيت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إلى قيام الساعة. {وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلِصاً}. قرأه عاصم وحمزة والكسائي، بفتح اللام أي معصوماً من الأدناس، اختاره الله تعالى. والباقون بالكسر أي مخلصاً لعبادته عن الرياء، ولنفسه عما سوى الله. {وَكَانَ رَسُولاً} إلى بني إسرائيل والقبط، {نَّبِيّاً} يخبرهم عن الله تعالى. {وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنِ} أي الذي يلي يمين موسى، والطور: جبل بين مصر ومدين، وذلك حين توجه من مدين إلى مصر، أي تمثل له الكلام من تلك الجهة. يقول يا موسى: {إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ} (ط هـ: 41) {وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}، أي مناجياً أي رفعنا قدره، وشرّفناه بالمناجاة، بأن أسمعه الله تعالى كلامه بلا واسطة. وقيل: رفعناه مكاناً عالياً فوق السموات، حتى سمع صرير القلم حيث كتبت التوراة في الألواح. {وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّاً}، أي وجعلنا أخاه هارون نبياً من أجل رأفتنا به، ليكون وزيراً له، ومعيناً له في تبليغ الرسالة.

وهذا إشارة إلى أن النبوة ليست كسبية، بل هي من مواهب الله تعالى، يهب لمن يشاء النبوة والرسالة، وإشارة إلى أن لموسى اختصاصاً بالقربة، والقبول عند الله تعالى، حتى يهب أخاه هارون النبوة والرسالة بشفاعته، كما يهب الأنبياء والرسل بشفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله صلى الله عليه وسلم: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم عليه السلام». {وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَٰدِقَ ٱلْوَعْدِ}، فكان إذا وعد الناس بشيء أنجز وعده.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما إنه عليه السلام وعد صاحباً له أن ينتظر في مكان، فانتظره سنة. وقد وعد من نفسه الصبر على الذبح فوفى به، {وَكَانَ رَسُولاً} إلى جرهم وهم قبيلة من عرب اليمن نزلوا في وادي مكة بشريعة أبيه، فإن أولاد إبراهيم كانوا على شريعته. {نَّبِيّاً}، يخبر عن الله، {وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ}، أي قومه، {بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ}، أي الصدقات الواجبة، {وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً}، أي فائزاً في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

{وَ ٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ}، وهو سبط شيث وجدّ أبي نوح {إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً}، أي ملازماً للصدق في جميع أحواله، {نَّبِيّاً}، وهذا مخصص للخبر الأول، إذ ليس كل صديق نبياً. {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً}، وهو السماء الرابعة.

وكان سبب رفعه إليها، أنه سار ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يا ربّ إني قد مشيت فيها يوماً فأصابني منها ما أصابني، فكيف من يحملها مسيَّرة خمسمائة في يوم واحد؟ اللهم خفف عنه من ثقلها، وحرّها، فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها، ما لايعرف، فقال: يا ربّ خففت عني حرّ الشمس، فما الذي قضيت فيه؟ قال: إن عبدي إدريس، سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته، قال: يا ربّ إجعل بيني وبينه خلة، فأذن الله تعالى له حتى أتى إدريس ورفعه إلى السماء. {أُولَٰئِكَ} العشرة المذكورون في هذه السورة، {ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم}، بفنون النعم الدينية والدنيوية، {مِّنَ ٱلنَّبِيِّيْنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءادَمَ}، وهو إدريس، {وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ} أي ومن ذرية من مع نوح في السفينة وهو إبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح، {وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرٰهِيمَ}، وهم إسماعيل وإسحٰاق ويعقوب، {وَإِسْرٰءِيلَ}، أي ومن ذرية يعقوب، وهم يوسف، وإخوته، وموسى، وهارون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، {وَمِمَّنْ هَدَيْنَا}، أي ومن جملة من هديناهم إلى الحق. {وَ ٱجْتَبَيْنَآ} أي اصطفيناهم للإسلام، كعبدالله بن سلام، وأصحابه واسم الموصول خبر اسم الإشارة، ومن النبيين بيان للموصول، ومن ذرية بدل بإعادة الجار، ومن للتبعيض. {إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءايٰتُ ٱلرَّحْمٰنِ} وهي ما خصهم الله تعالى به من الكتب المنزلة عليهم، {خَرُّواْ سُجَّداً وَبُكِيّاً}، من مخافة الله تعالى.

قال العلماء: ينبغي أن يدعو الساجد للتلاوة في سجدته بما يليق بآياتها، فههنا يقول: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديين، الساجدين لك، الباكين عند تلاوة آياتك، اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك. {فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ}، أي حدث من بعد النبيين جماعة سوء ويقال لعقب الخير: «خلف» بفتح اللام ولعقب الشر: «خلف» بالسكون. {أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ}، أي تركوها، {وَ ٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوٰتِ}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم اليهود، تركوا الصلاة المفروضة، وشربوا الخمر، واستحلوا نكاح الأخت من الأب. وعن علي رضي الله عنه: هم من بني المشيد، وركب المنظور، ولبس المشهور. {فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيّاً} أي وادياً في جهنم، بعيداً قعره، تستعيذ منه أوديتها، أعد للزناة، وشربة الخمر، وشهّاد الزور، وأكلة الربا، والعاقّين لوالديهم. {إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صٰلِحاً فَأُوْلَٰئِكَ} أي من اتصف بهذه الأمور الثلاثة: {يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ}، أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم، {شَيْئاً}.

وتوقفّ الأجر على العمل الصالح هو الغالب، لأنه لا تناط الأحكام إلا بالأعم الأغلب، ولا تناط بالنادر، كمن تاب عن كفره ولم يدخل وقت الصلاة، أو وجد الحيض، فإنه لا يجب عليه العمل قبل وجود سببه وشرطه، فلو مات في ذلك الوقت كان من أهل النجاة، مع أنه لم يصدر عنه عمل صالح، من صلاة وزكاة وصوم، وعلى هذا لا يتوقف الأجر على وجود العمل الصالح.

{جَنَّتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُ بِـ ٱلْغَيْبِ}، حال من المفعول أي وهم غائبون عنها لا يرونها، وإنما آمنوا بها بمجرد الإخبار منه تعالى، أي وعدهم بها وهم في الدنيا، ومن في الدنيا لا يشاهدها. {إِنَّهُ} تعالى أو إن الشأن، {كَانَ وَعْدُهُ} تعالى، {مَأْتِيّاً}، أي مفعولاً منجزاً أي الوعد منه تعالى لا بد من وقوعه فهو وإن كان بأمر غائب، فكأنه حاصل مشاهد. {لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا} أي الجنة {لَغْواً} أي فضول كلام لا فائدة فيه {إِلاَّ سَلَماً} من بعضهم على بعض، أو من الملائكة عليهم. فإن معنى السلام هو الدعاء بالسلامة. فأهل الجنة لا يحتاجون إلى هذا الدعاء لأنهم في دار السلام، فهذا من فضول الحديث لولا ما فيه من فائدة الإكرام. {وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا} أي طعامهم في الجنة، {بُكْرَةً وَعَشِيّاً} أي لهم رزق واسع ودائم، فلهم ما يشتهون متى شاءوا، إذ لا ليل فيها، ولابكرة، ولا عشيّ. وإنما ذكرهما ليرغب كل قوم بما أحبوه، لأنه لا شيء أحب إلى العرب من الغداء والعشاء، فوعدهم بذلك. ولذلك ذكر أساور الذهب، والفضة، ولباس الحرير، التي كانت عادة العجم، والأرائك التي هي الحجال المضروبة على الأسرة وهي كانت من عادة أشراف العرب في اليمن. {تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً} من الكفر أي هذه الجنة التي عظم شأنها، نعطيها من أطاعنا عطاءً لا يردّ كالميراث الذي يأخذه الوارث فلا يرجع فيه المورث. {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ}.

قيل: احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم حين سألوه في أمر الروح وأصحاب الكهف، وذي القرنين، فقال: «أخبركم غداً»، ولم يقل: إن شاء الله، حتى شق على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نزل بعد أيام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:«أبطأت علي حتى ساءني، واشتقت إليك». فقال له جبريل: إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، وإذا حبست احتبست، فأنزل الله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبّكَ}، حكاية قول جبريل أمره الله تعالى أن يقوله لمحمد جواباً لسؤاله بقوله: يا جبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا» والمعنى وما ننتزل من السماء وقتاً غبّ وقت إلاّ بأمر الله تعالى على ما

تقتضيه حكمته. {لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ}، أي لربك ما قدّامنا وما خلفنا من الجهات، وما نحن فيه، فلا ننتقل من جهة إلى جهة، ومن مكان إلى مكان، إلاّ بأمره ومشيئته، فليس لنا أن ننقلب من السماء إلى الأرض إلا بأمره {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً} أي تاركاً لك بتأخير الوحي عنك، فعدم النزول لعدم الأمر به لحكمة بالغة فيه. وقال أبو مسلم: ويجوز أن يكون قوله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبّكَ}، حكاية قول أهل الجنة يدخلونها، والمعنى: وما نتنزل الجنة إلا بأمر الله تعالى ولطفه، له ما بين أيدينا في الجنة مما يكون مستقبلاً، وما خلفنا مما كان في الدنيا، وما بين ذلك فيما نحن فيه مما بين الوقتين. وقول تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً} ابتداء كلام من الله تعالى، تقرير لقولهم أي وما كان الله ناسياً لأعمال العاملين وللثواب عليها بما وعدهم، لأنه عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة. {رَّبُّ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، فلا يجوز عليه النسيان، وهو بدل من ربك أو خبر مبتدأ مضمر أي هو {فَٱعْبُدْهُ}، يا أكرم الرسل، {وَٱصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}، وعدي الاصطبار باللام لأن العبادة جعلت بمعنى القرب، ففيه معنى الثبات لأن العبادة ذات شدائد ومشاق، فكأنه قيل: اثبت لعبادة الرب، ولا يضق صدرك، من قول الكافرين لك. {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ}، أي للرب {سَمِيّاً} أي نظيراً فيما يقتضي العبادة، من كونه منعماً بأصول النعم وفروعها، وشريكاً في الاسم الخاص كرّب السموات والأرض وما بينهما وكالله. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يسمّى بالرحمن غير تعالى. {وَيَقُولُ ٱلإِنْسَٰنُ} أبي بن خلف الجمحي بطريق الإنكار والاستبعاد فإنه أخذ عظاماً بالية ففتّها، وقال: يزعم محمد أنا نبعث ما نموت، ونصير إلى هذه الحال أو الوليد بن المغيرة، أو أمية بن خلف. {أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً}، أي أبعث من الأرض.

{أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَٰنُ} وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وقالون، عن يعقوب بسكون الذال، وضم الكاف، أي أيقول المجترىء بهذا الإنكار على ربه ولا يتفكر، {أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ}، أي من قبل الحالة التي هو فيها من نطفة منتنة، {وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} أي والحال أنه لم يكن حينئذ شيئاً أصلاً، أي أولا يعلم ذلك من حال نفسه؟ لأن كل أحد يعلم أنه لم يكن حياً في الدنيا، ثم صار حياً فيها. {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ} أي لنجمعنّ القائلين بعدم البعث بالسوق إلى المحشر، بعدما أخرجناهم من الأرض أحياء. {وَٱلشَّيَٰطِينَ}.

روي أن كل كافر يحشر مع شيطانه الذي يضلّه في سلسلة. {ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ} بعد طول الوقوف في المحشر {حَوْلَ جَهَنَّمَ

جِثِيّاً}، أي باركين على الركب، لما يدهمهم من شدة الأمر الذي لا يطيقون معه القيام على أرجلهم. {ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ} أي من كل أمة تبعث ديناً من الأديان، {أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيّاً} أي جراءة. أي فمن كان أشدهم تمرداً في كفره، خصَّ بعذاب أعظم، لأن عذاب الضّال المضل، يجب أن يكون فوق من يضلّ تبعاً لغيره، وليس عذاب من يتجبّر كعذاب المقلّد، وليس عذاب من يورد الشبه في الباطل، كعذاب من يقتدي به مع الغفلة. {ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا} أي أحقّ بجهنم {صِلِيّاً} أي دخولاً فنبدأ بهم. {وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} أي ما منكم أيها الإنسان أحد إلاّ حاضرٌ قرب جهنم، ويمرّ بها المؤمنون، وهي خامدة، وتنهار بعيرهم.
وعن جابر أنه صلى الله عليه وسلم سئل فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال بعضهم لبعض: أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار؟ فيقال لهم: قد وردتموها وهي خامدة». وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية»، فقالت حفصة أليس الله يقول: وإن منكم إلاّ واردها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ثم ننجي الذين اتقوا» أي نبعدهم عن عذاب جهنم.
وقيل: ورود جهنم هو الجواز على الصراط الممدود عليها، وقيل: الورود: الدخول، فالمؤمنون يدخلون النار من غير خوف وضرر ألبتة، بل مع الغبطة والسرور. {كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً} أي كان ورودهم إياها أمراً محتوماً أوجبه الله تعالى على ذاته. {ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ} من الكفر والمعاصي، أي نخرجهم منها، فلا يخلدون بعد أن أدخلوا فيها، وإنما دخلوا لهم فيها ليشاهدوا العذاب، ليصير ذلك سبباً لمزيد التذاذهم بنعيم الجنة. {وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ}، بالكفر والمعاصي {فِيهَا} أي جهنم {جِثِيّاً} أي منهاراً بهم.
{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} أي المشركين، {ءَايَٰتُنَا} الناطقة بحسن حال المؤمنين، وسوء حال الكفرة، {بَيِّنَٰتٍ} أي مرتلات الألفاظ، مبينات المعاني، {قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} أي مردوا منهم على الكفر، ومرنوا على العناد، وهم: النضر بن الحرث، وأتباعه الفجرة. {لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ} أي لفقراء المؤمنين الذين هم في خشونة عيش، ورثاثة ثياب وضيق منزل، واللام للتبليغ لأنهم شافهوا المؤمنين وخاطبوهم بقولهم: {أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ} أي المؤمنين والكافرين {خَيْرٌ مَّقَاماً} أي منزلاً. وقرأ ابن كثير بضم الميم {وَأَحْسَنُ نَدِيّاً} أي مجلساً أي أنحن أو أنتم.

روي أنهم كانوا يرجلون شعورهم، ويدهنونها، ويتطيبون، ويتزينون بالزينة الفاخرة، ثم يدعون فقراء المؤمنين، ويقولون مفتخرين عليهم: انظروا إلى منازلنا فتروها أحسن من منازلكم، وانظروا إلى مجالسنا عند التحدث ومجلسكم، فترونا نجلس في صدر المجلس، وأنتم في طرفه الحقير. فإذا كنا بهذه المثابة، وأنتم بتلك، فنحن عند الله خير منكم، ولو كنتم على خير لأكرمكم بهذه الأمور، كما أكرمنا بها.

والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات، بينات الإعجاز، وعجزوا عن معارضتها، شرعوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ}، أي كثيراً أهلكنا بفنون العذاب قبل هؤلاء القريش، من أمم عاتية كعاد، وثمود وأمثالهم، {هُمْ أَحْسَنُ} من هؤلاء {أَثَاثاً} أي أمتعة {وَرِءْياً}، أي منظراً، أي فهم أفضل من هؤلاء فيما يفتخرون به، ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا، أي فإن ما أنتم أيها الكفار فيه من النعم، محض استدراج لم ينفعكم الترفه شيئاً عند نزول البلاء بكم، كما وقع للأمم الماضية، حيث كانوا في رفاهية أكثر منكم، ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم، ولم ينفعهم الترفه شيئاً {قُلْ} يا أشرف الرسل لهؤلاء المفتخرين بما لهم من حظوظ: {مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدّاً}، وهذا الأمر بمعنى الخبر، أي من كان مستقراً في الضلالة، مغموراً بالجهل والغفلة عن عواقب الأمور، فيمهله الله بطول العمر، وبسط المال، وإنفاقه فيما يستلذّ به من الأوزار، ولا يزال يمدّ له استدراجاً وقطعاً للمعاذير يوم القيامة. {حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ}، من الله تعالى {إِمَّا ٱلعَذَابَ} الدنيوي بغلبة المسلمين عليهم، وتعذيبهم إياهم قتلاً وأسراً، {وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ}، أي ما نالهم يوم القيامة من الخزي والنكال. {فَسَيَعْلَمُونَ} حينئذ، {مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً} أي منزلاً من الفريقين {وَأَضْعَفُ جُنداً}، أي أقلّ ناصراً، أهم أم المؤمنون. وهذا ردّ لما كانوا يزعمون أن لهم أنصاراً من الأحبار، ويفتخرون بذلك في المحافل، {وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَواْ} بالإيمان، {هُدًى} أي بالإخلاص، وبالعبادات المتفرعة على الإيمان، وبالثواب على ذلك الإيمان. {وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ}، أي الطاعات التي تبقى فوائدها {خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً} أي فائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية التي يفتخرون بها {وَخَيْرٌ مَّرَدّاً} أي عاقبة.

{أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِأايٰتِنَا}، الناطقة بالبعث، وهو العاص بن وائل السهمي، {وَقَالَ} لخباب بـن الأرت: {لأوتَيَـنَّ} فـي الآخـرة {مَالاً وَوَلَداً}.

نزلت هذه الآية في شأن العاص بن وائل، عن خباب قال: كان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أقتضيه، فقال لي: لن أقضـيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لن أكفر به، حتى تموت ثم تبعـث. قـال: وإني لمبعـوث مـن بعـد المـوت، قلـت: نعـم، قـال: إنـي إذا بعثـت وجئتني فسيكون لي ثمَّ مال وولد، فأعطيك.

وقرأ حمزة والكسائي «وولداً» بضم الواو وسكون اللام. وقيل: صاغ خباب للعاص حلياً فطلب الأجرة، فقال: إنكم تزعمـون أنكـم تبعثون، وأن في الجنة ذهباً، وفضة، وحرير، أفأنا أقضيك، ثـم فـإني أوتى مالاً وولداً حينئذٍ فأجاب الله تعالى عـن كلامـه بقـوله تعـالى: {أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ} أي أعلم الغيب، وأن يعطى ما قاله، أو أقد بلغ مـن عظمة الشأن، إلى أن ارتقى إلى علم الغيب، الذي انفرد اللـه بـه، حتى ادعى أن يؤتى في الآخرة مالاً وولداً، وأقسم عليه. {أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمٰنِ عَهْداً}، بأن يؤتى ما قـاله، وقيـل: المعنـى انظـر فـي اللوح المحفوظ أن له ما يقول، أم اعتقد وحدة الله بكلمة الشهادة فيكون له ما يقول.

وعن قتادة: هل له عمل صالح قدمه فهو يرجو بدلك ما يقول: {كَلاَّ} ردع له عن التفوّه بتلك الكلمة الشنيعة، وتنبيه علـى خطئـه، أي لا يكون له ما يقول، {سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ}، أي سنظهر له أنا كتبنا قوله ونؤاخذه به، {وَنَمُدُّ لَهُ مِـنَ ٱلْعَـذَابِ مَـدّاً} أي نطـوّل بـه مـن العذاب ما يستحقه، ونضاعفه له لكفره وافترائه على اللـه تعـالى، واسـتهزائه بآيـاته، {وَنَرِثُـهُ مَـا يَقُـولُ}، أي ننـزع مـا آتينـاه بمـوته، ونحرمه ما تمناه في الآخـرة مـن مـال، وولـد، ونجعلـه لغيـره مـن المسلمين، {وَيَأْتِينَا} يوم القيامة {فَرْداً} لا يصحبه مـال، ولا ولـد، ولا عشيرة، ولا خير.

{وَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءالِهَةً}، أي اتخذ كفار قريش الأصنام آلهة متجاوزين الله تعالى، {لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِـزّاً} أي ليكـون الأصـنام ما نعين لهـم مـن عـذاب اللـه، {كَلاَّ} أي لا مـانع مـن عـذابهم، فلا يعتقدوا أن الأصنام شفعاء لهم عنده تعالى، {سَيَكْفُرُونَ بِعِبَـدَتِهِمْ} أي سيجحد الأصنام بعبادتهم لها، بأن ينطقها الله تعالى، وتقـول مـا عبدتمونا، {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ} أي تكون الأوثان الـتي كـانوا يرجـون أن تكـون لهـم منعـة مـن العـذاب، {ضِـدّاً}، أي أعـداء وأعوانـاً بالعذاب، فإنهم وقود النار، ولأنهم عذّبوا بسبب عبـادتهم. {أَلَـمْ تَـرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَـى ٱلْكَـٰفِرِيـنَ تَـؤُزُّهُمْ أَزّاً} أي ألـم تنظـر يـا

أشرف الرسل، أنا سلطنا الشياطين على الكافرين، تهيّجهم على المعاصي تهييجاً شديداً بأنواع الوساوس، {فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ}، بطلب إهلاكهم حتى تستريح أنت والمؤمنون من شرورهم. {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً}، فليس بينك وبين ما تطلب من هلاكهم إلا أيام محصورة، وأنفاس معدودة، فنضبط عليهم ما يقع منهم، حتى نؤاخذهم به ولا نهمله. {وَٱلسَّمَاء ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَ ٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَٰهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلاْخْدُودِ * ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِـ ٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلاْرْضِ وَٱللَّهُ عَلَى كُلّ شَىْء شَهِيدٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلاْنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِىء وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لّمَا يُرِيدُ *** هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِمْ مُّحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} بإيمانهم، {إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ} أي إلى محل كرامة ربهم الذي يغمرهم برحمته الواسعة، {وَفْداً}، أي وافدين على ربهم، منتظرين لكرامتهم وأنعامهم، فبعضهم كانوا ركباناً على نجائب سرجها من ياقوت، وعلى نوق رحالها من ذهب، وأزمتها من زبرجد، من أول خروجهم من القبور، أو من منصرفهم من الموقف حتى يقرعوا باب الجنة. {وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ} بكفرهم ومعاصيهم {إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْداً} أي عطاشاً بإهانة كأنهم نِعمٌ عطاشٌ تساق إلى الماء {لاَّ يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلاَّ مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْداً}، أي لا يستحق هؤلاء المجرمون أن يشفع لهم غيرهم، إلا من اتخذ كلمة الشهادة بالتوحيد والنبوة، ولو كانوا أهل الكبائر.

وروى ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه ذات يوم: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً» قالوا: وكيف ذلك؟ قال: «يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطر السمٰوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر، وتبعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فإذا قال ذلك طبع الله عليه بطابع، ووضع تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الرحمن؟ عهد، فيدخلون الجنة». {وَقَالُواْ} أي الكافرون

{ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَداً} عزيراً، والمسيح، والملائكة، {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً} أي لقد قلتم قولاً منكراً عظيماً {تَكَادُ ٱلسَّمَٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ}، أي يتشققن {مِنْهُ} أي من قولهم، {وَتَنشَقُّ ٱلاٌّرْضُ} أي تنخسف بهم، {وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدّاً} أي تسقط الجبال منطبقة عليهم.

{أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً} أي من نسبهم ولداً للرحمن، وهذا بدل من الهاء في منه. قال ابن عباس: فزعت السمٰوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، وغضبت الملائكة حين قالوا: الله ولد، أي استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين. {وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً}، لأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد، ولا مشبه لله تعالى. ولأن اتخاذ الوالد إنما يكون لأجل سرور الوالد به، واستعانته به، وذكر جميل به، وكل ذلك لا يليق به تعالى، محال عليه. وهذه الجملة حال من فاعل قالوا أو دعوا، {إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلاٌّرْضِ إِلاَّ آتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْداً}، أي ما من أحد فيهما إلا مملوكٌ له، مقرّ له بالعبودية، مُطيعٌ له، غير الكافر. {لَّقَدْ أَحْصَٰهُمْ} فلا يكاد يخرج منهم أحد من حيطة علمه، وقبضة قدرته وملكوته، {لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً * فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبّكَ فَٱرْغَبْ} أي عدّ أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم، وكل شيء عنده بمقدار، {وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فَرْداً} أي كل واحد منهم يجيء إلى الله وحيداً، بلا مال، ولا أتباع. {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدّاً} أي سيحدث لهم في القلوب محبة، من غير تعرض للأسباب من قرابة، أو صداقة، أو اصطناع معروف، أو غير ذلك تخصيصاً لأوليائه بهذه الكرامة. كما قذف في قلوب أعدائهم الرعب إعظاماً لهم. أي إن الله تعالى وعدهم أن يؤلف بين قلوبهم في الدنيا إذا ظهر الإسلام، وأن يحببّهم إلى خلقه يوم القيامة، بما يظهر من حسناتهم، وينشر من ديوان أعمالهم، على رؤوس الأشهاد. {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ} أي القرآن {بِلَسَانِكَ} أي أنزلناه ميسراً بلغتك {لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ}، بامتثال ما فيه من الأمر والنهي، {وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً}، أي الذين يجادلون فيه بالباطل وهم كفار مكة. {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ} أي قروناً كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء المعاندين، {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً} أي هلكوا جميعاً فلم يبق منهم عين، ولا أثر فلا يرى منهم أحد، ولا يسمع منهم صوت حفي، أي فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء. وختم الله تعالى هذه السور بموعظة بليغة، لأنهم إذا تأملوا

وعلموا أنه لا بد من زوال الدنيا ومـن الانتهـاء إلـى المـوت، خـافوا ذلك وخافوا سواء العاقبة في الآخرة، فكانوا أقرب إلى الحـذر مـن المعاصي.

سورة طه

مكية، آياتها مائة وخمس وثلاثـون، وكلماتها ا ألـف وثلاثمائــة وإحــدى وأربعــون، وحروفهــا خمســة آلاف ومائتان واثنان وأربعون.

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. طه . مَآ أَنَزَلْنَـا عَلَيْـكَ ٱلْقُـرْءَانَ لِتَشْقَىٰ}. أي لتتعب بالمبالغة في محاورة الطغاة، وفرط التأسـف على كفرهم، أو لتهلك نفسك بالعبادة وبكثرة الرياضـة، ومـا بعثـت إلا بالحنيفية السمحة، {إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ}، أي ما أنزلنا عليـك القرآن لتتعب في تبليغه، ولكن تـذكرة لمـن يسـلم. {تَنـزِيلاً مِّمَّـنْ خَلَق ٱلأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوٰتِ ٱلْعُلَى}، منصوب على المدح والاختصاص، أو منصوب ب «يخشى» مفعولاً بـه أي أمـدح تكليمـاً مـن اللـه، أو أنزل الله القرآن تذكرة لمن يخشى، تكليم الله تعـالى. {ٱلرَّحْمَٰـنُ عَلَى ٱلْعَـرْشِ ٱسْتَوَىٰ} أي الرحمـن أوجـد الكائنـات، ودبـر أمرهـا فالاستواء على العرش، مجاز عن الملك والسـلطان، متفـرع علـى الكناية فيمن يجوز عليه القعود على السـرير، يقـال: اسـتوى فلان على سرير الملك، ويراد بهذا القول صار فلان ملكـاً، وإن لـم يقعـد على السـرير أصـلاً. والمـراد هنـا بيـان تعلّـق إرادته تعـالى بإيجـاد الكائنات، وتدبير أمرها. {لَهُ مَـا فِـي ٱلسَّمَٰوٰتِ وَمَـا فِـي ٱلأَرْضِ}، سواء كان فيهما جزءاً منهمـا، أو حـالاً فيهمـا. {وَمَـا بَيْنَهُمَـا}، مَـن الموجودات الكائنة في الجـوّ دائمـاً كـالهواء، والسـحاب، أو أكثريـاً كـالطير {وَمَـا تَحْـتَ ٱلثَّـرَىٰ}، أي والـذي تحـت الأرض السـابعة السـفلى، لأن الأرضـين علـى ظهـر الحـوت، والحـوت علـى المـاء والماء على صخرة خضراء، فخضرة السماء منهـا والصـخرة، علـى قرني ثور، والثور على الثرى، وهو التراب الندي، ولا يعلم مـا تحتـه إلا الله أي أنه تعالى مالك لهـذه الأقسـام الأربعـة، تصـرفاً وإيجـاداً وإعداماً، وإحياء، وإماتة. {وَإِن تَجْهَرْ بِـ ٱلْقَوْلِ}، أي وإن تجهر بـذكره تعالى ودعائه، فاعلم أنه تعالى غني عن جهرك. {فَإِنَّهُ يَعْلَـمُ ٱلسِّـرَّ وَأَخْفَى} أي لأنه يعلم ما أسررته إلى غيرك في خفاء، وما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه بـه أصـلاً. وهـذا إمـا نهـي عـن الجهـر وإمـا إرشاد للعباد إلى أن الجهر ليس لإسماعه تعـالى، بـل لغـرض آخـر

كحضور القلب ودفع الشواغل، والوسوسة: {ٱللَّهُ}، أي ذلك الموصوف بصفات الكمال، هو الله لا إله إلا هو، {لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ}.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى خلق ملكاً من الملائكة قبل أن يخلق السموات والأرض، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ماداً بها صوته، ولا يقطعها، ولا يتنفس فيها، ولا يتمّها، فإذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ في الصور، وقامت القيامة تعظيماً لله عزّ وجل» اه.

وينبغي لأهل لا إله إلا الله، أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا إله إلا الله: التصديق، والتعظيم، والحلاوة، والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق. ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع، ومن ليس له الحلاوة فهم مراء، ومن ليس له الحرية فهو فاجر. {لَهُ ٱلأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ}، فحسن الأسماء لحسن معانيها.

{وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ إِذْ رَأَى نَاراً}، أي أليس قد أتاك خبر موسى حين رأى ناراً.

روي أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً في الرجوع إلى والدته، فأذن له، فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق، مخافة من ملوك الشام، فلما وافى وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور، ولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية، مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد حاد عن الطريق، فقدح عليه السلام النار فلم تنوّر المقدحة شيئاً فبينما هو في مزاولة ذلك، إذ رأى ناراً من بعيد على يسار الطريق من جانب الطور، {فَقَالَ لأَهْلِهِ ٱمْكُثُوۤاْ} في مكانكم أي لا تتبعوني في الذهاب إلى النار، {إِنِّيۤ ءَانَسْتُ نَاراً} أي أبصرتها إبصاراً بيناً، {لَّعَلِّيۤ آتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ}، أي لعلّي أجيئكم من النار بشعلة مقتبسة من معظم النار، {أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى}، أي عند النار من يدلني على الطريق. {فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ} أي فلما أتى النار رأى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، كأنها نارٌ بيضاء، فوقف متعجباً من شدة ضوء تلك النار، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا النار تغيّر خضرتها، ولا كثرة ماء الشجرة تغيّر ضوء النار، فسمع تسبيح الملائكة، ورأى نوراً عظيماً، ثم رمى موسى بنظره إلى فرعها، فإذا حضرته ساطعة في السماء، وإذا نور بين السماء والأرض له شعاع تكلّ عنه الأبصار، فلما رأى موسى ذلك، وضع يده على عينيه، فنودي {يٰمُوسَىٰ} {إِنِّيۤ أَنَاْ رَبُّكَ} أي فلما نودي يا موسى أجاب سريعاً فقال: لبيك، من المتكلم؟ إني أسمع صوتك ولا أراك، فأين أنت؟ فقال تعالى: أنا فوقك، ومعك، وأمامك، وخلفك، وأقرب إليك منك فعلم أن ذلك لا ينبغي، ولا يكون إلا من الله فأيقن به وسمع الكلام بكل أجزائه حتى إن كل جارحة منه

كانت أذناً، وسمعه من جميع الجهات. {فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ} أمر عليه الصلاة والسلام بالخلع، لأن الحفوة تواضع لله، وحسن أدب معه تعالى، {إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ}، أي المبارك {طُوًى}، اسم الوادي، أو اسم بئر قد طويت بالحجر في ذلك الوادي الذي كانت فيه الشجرة. قال أهل الإشارة: والمراد بخلع النعلين، ترك الالتفات إلى الدنيا والآخرة. كأنه تعالى أمره عليه السلام، بأن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى، ولا يلتفت بخاطره إلى ما سواه تعالى. والمراد من الوادي المقدس: طهارة عزة الله تعالى وجلاله. والمعنى: إنك لما وصلت إلى بحر المعرفة، فلا تلتفت إلى المخلوقات اه. ويقال: معنى طوى قد طوته الأنبياء قبلك.

قال ابن عباس: إنه عليه السلام مرّ بذلك الوادي ليلاً فطواه، فكان المعنى: أنك بالوادي المقدس الذي طويته طياً، أي جاوزته حتى ارتفعت إلى أعلاه وعلى هذا إن «طوى» مصدر خرج عن لفظه. {وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ} للرسالة والكلام الذي خصصتك به.

وقرأ حمزة: «وأنا اخترناك» بنون العظمة، وبتشديد النون من «أنا»، وبفتح الهمزة والكسر. وقرأ أبي بن كعب: «إني اخترتك» {فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ} أي فاستمع للذي يوحي إليك مني. وقوله تعالى: {وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ} يفيد نهاية اللطف والرحمة. وقوله تعالى: {فَٱسْتَمِعْ} يفيد نهاية الهيبة، فكأنه تعالى قال: لقد جاءك أمر عظيم، هائل، فتأهب له، واجعل كل خاطرك مصروفاً إليه. فأرسله الله تعالى في ذلك الوقت، في ذلك المكان، وكان عمره حينئذ أربعين سنة {إِنَّنِيۤ أَنَا ٱللَّهُ} بدل مما يوحى، {لاۤ إِلَـٰهَ إِلاۤ أَنَا} وهذا إشارة للعقائد العقلية، {فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىۤ} إي لتذكرني في الصلاة لاشتمالها على كلامي، أو لذكري إياك بالمدح والثناء، أو لإخلاص ذكري لا تقصد بالصلاة غرضاً آخر. وهذا إشارة للأعمال الفرعية.

{إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ} أي كائنة لابد، {أَكَادُ أُخْفِيهَا}، أي أكاد أظهرها، أي قرب إظهارها.

ويؤيده قراءة فتح الهمزة أو المعنى، أكاد أزيل عنها إخفاءها لأن أفعل قد يأتي بمعنى السلب، كقولك أشكلت الكتاب، أي أزلت إشكاله، وهذا إشارة إلى العقائد السمعية، وهذه الثلاثة جملة الدين. فإن أصول هذا الباب ترجع إلى ثلاثة: علم المبدأ، وعلم الوسط، وعلم المعاد. فعلم المبدأ، هو معرفة الله تعالى، وهو المراد بقوله تعالى {إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلا أَنَا} وعلم الوسط، هو علم العبودية، فقوله تعالى: {فَٱعْبُدْنِى} إشارة إلى الأعمال

الجسمانية وقوله: {لِذِكْرِى}، بمعنى لتكون ذاكراً لي غير ناس، إشارة إلى الأعمال الروحانية، فالعبودية أولها الأعمال الجسمانية، وآخرها الأعمال الروحانية، وعلم المعاد هو قوله تعالى: {إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا}. {لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ} برة أو فاجرة {بِمَا تَسْعَىٰ} أي بما تعمل من خير أو شر فقوله: {لِتُجْزَىٰ} متعلق ب «آتية» أو ب «أخفيها». {فَلاَ يَصُدَّنَّكَ} أي فلا يصرفنّك يا موسى {عَنْهَا}، أي عن ذكر الساعة، {مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ} أي ميل نفسه إلى إنكار الساعة، فإن منكر البعث إنما أنكره اتباعاً للهوى لا للدليل، {فَتَرْدَىٰ} أي فتهلك بالنار. فالله تعالى راعى هذا الترتيب الحسن في هذا الباب، لأنه قال لموسى أولاً {فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ} وهو إشارة إلى الأمر، بتطهير السر عما سوى الله تعالى، ثم أمره بتحصيل ما يجب تحصيله من التكاليف، وافتتحها بمحض اللطف، وهو قوله تعالى: {إِنَّنِى أَنَا ٱللَّهُ} واختتمها بمحض القهر وهو قوله تعالى: {فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا} الآية تنبيهاً على أن رحمته سبقت غضبه وإشارة إلى أن العبد لا بد له في العبودية من الرغبة، والرهبة، والرجاء، والخوف. {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ} أي وما تلك مأخوذة بيمينك {يٰمُوسَىٰ}، فقوله: {وَمَا تِلْكَ}، إشارة إلى العصا، وقوله: {بِيَمِينِكَ} إشارة إلى اليد.
أراد الله تعالى بالسؤال أن يثبت قلب موسى، ويزداد علمه، حتى إذا قلب الله تعالى العصا ثعباناً لا يخافه ولا يعتريه شك، وكذا إذا أخرج الله من يد موسى شعاعاً، فيعرف أن ذلك بقدرة الله تعالى. والنكتة في ذلك السؤال، أنه لما غلبت الدهشة على موسى في الحضرة، أراد ربّ العزة إزالتها، فسأله عن أمر لا يغلط فيه وهي العصا. كذلك المؤمن إذا مات ووصل إلى حضرة ذي الجلال، فالدهشة تغلبه، والحياء يمنعه عن الكلام، فتسأله الملائكة عن الأمر الذي لم يقع الغلط فيه في الدنيا وهو التوحيد، فإذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه. {قَالَ هِىَ} أي التي قارة بيميني {عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا} أي أعتمد عليها عند النهوض إلى القيام، أو عند الإعياء، أو عند المشي. {وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى} أي أخبط بها ورق الشجر لغنمي. وقرأ عكرمة «وأهسّ» بالسين غير المنقوطة وهو زجر الغنم وتعديته ب «على» لتضمن معنى الانحاء والإقبال أي أزجر الغنم بها منحياً ومقبلاً عليها {وَلِىَ فِيهَا} أي العصا {مَأَرِبُ أُخْرَىٰ}، أي حاجات شتى.
وأجمل موسى عليه السلام، رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب، فيسمع كلام الله مرة أخرى، ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك. ثم أراد الله أن يعرّفه عليه السلام، أن فيها أعظم من مآربه

التي هي: حمل الزاد، والقوس، وعرض الزند، وإلقاء الكساء للاستظلال، وطرد السباع وغير ذلك، فأمره الله بإلقائها.

{قَالَ أَلْقِهَا} من يدك {يٰمُوسَىٰفَأَلْقٰهَا} من يده على الأرض، {فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ}. قيل كانت العصا أول انقلابها حية صفراء صغيرة في غلظ العصا، ثم انتفخت وتزايد جرمها، حتى صارت ثعباناً، فأول حالها جان، ومآلها ثعبان. وقيل: إنها كانت من أول الأمر في شخص الثعبان، وسرعة حركة الجان، وكان لها عرف كعرف الفرس، وكان بين فكّيها أربعون ذراعاً، وابتلعت كل ما مرت به من الصخور والأشجار، حتى سمع موسى صرير الحجر في فمها، وجوفها، وعيناها تتّقدان كالنار، وهي تشتد رافعة رأسها فلما عاين موسى ذلك ولى هارباً منها. {قَالَ} تعالى له: {خُذْهَا} يا موسى بيمينك، {وَلاَ تَخَفْ} منها، {سَنُعِيدُهَا سِيَرتَهَا ٱلأُولَىٰ} أي سنعيدها بعد الأخذ إلى حالتها الأولى، التي هي الهيئة العصوية.

فلما قال له ربه {لاَ تَخَفْ}، ذهب خوفه حتى أدخل يده في فمها، وأخذ بلحييها، فعادت عصا كما كانت. {وَ ضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ} أي أدخل كفك اليمنى في إبطك الأيسر وأخرجها، {تَخْرُجْ بَيْضَآءَ} أي متبرقة مثل البرق، أو مشرقة تضيء كشعاع الشمس، تغطي البصر عن الإدراك. ثم إذا ردّها إلى كفّه صارت إلى لونها الأول بلا نور، {مِنْ غَيْرِ سُوۤءٍ} أي من غير برص، {ءَايَةً أُخْرَىٰ} أي معجزة أخرى غير العصا. فقوله تعالى: {بَيْضَاء} حال من الضمير في تخرج، ومن غير سوء متعلق ببيضاء لما فيها من معنى الفعل، وهو ابيضت. وآية أخرى حال من ضمير تخرج. {لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ} في الإعجاز وهي اليد فإنها أكبر آيات موسى لأنها لم تعارض أصلاً، وأما العصا فقد عارضها السحرة. فقوله: {لِنُرِيَكَ} متعلق، بقوله تعالى: {وَ ضْمُمْ} أو بقوله: {تُخْرِجُ} وقوله: {مِنْ ءايٰتِنَا} حال من الكبرى، ف «الكبرى» مفعول ثان «لنريك»، والتقدير لنزيك الآية الكبرى، حال كونها بعض آياتنا الدالة على قدرتنا { ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ} بما رأيته من الآيتين العظيمتين، وادعه إلى عبادتي وحذّره نقمتي. {إِنَّهُ طَغَىٰ} أي جاوز الحدّ في الكبر، حتى تجاسر على دعوى الربوبية. {قَالَ} مستعيناً بالله تعالى: {رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى}، أي ليّن لي قلبي لأجترىء على مخاطبة فرعون، وكان موسى يخاف فرعون لشدة شوكته، وكثرة جنوده. فسأل الله تعالى أن يوسّع قلبه ليكون حمولاً لما يستقبل من الشدائد والمكاره، بجميل الصبر وحسن الثبات. {وَيَسِّرْ لِىۤ أَمْرِى} أي هوّن عليّ تبليغ الرسالة إلى فرعون. {وَ ٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى} متعلق بأحلل.

روي أنه عليه السلام كان في لسانه رتة، لأنه حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها لما كان فيها من الجوهر، فغضب فرعون وأمر بقتله، وقال: هذا هو الذي يزول ملكي على يده، وقالت آسية: إنه صبي لا يعقل وعلامته أن تقرّب منه التمرة، والجمرة، فقرّبا إليه فأخذ الجمرة، فجعلها في فيه. {يَفْقَهُواْ} أي يفهموا {قَوْلِي} عند تبليغ الرسالة. {وَ ٱجْعَل لِّى وَزِيراً مِّنْ أَهْلِى * هَـٰرُونَ أَخِى}. ف «وزيراً» مفعول ثان لأنه نكرة، و «هارون» مفعول أول لأنه معرفة، وقدم الثاني اعتناء بشأن الوزارة، و «أخي» عطف بيان، ولي متعلق بمحذوف على أنه حال من وزيراً، ومن أهلي متعلق بأجعل، والمعنى واجعل من أهلي هارون أخي، متحملاً على الاعباء لي، ومعيناً على أمري، يقوي أمري، وأثق برأيه، { ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِى}، أي قوي بهارون ظهري، وأعنّي به {وَأَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى} أي اجعله شريكي في أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغي.

وقرأ العامة على صيغة الطلب وهي ضم الهمزة من «أشدد» وهي همزة وصل، وفتح الهمزة من أشركه وهي همزة قطع. وقرأ ابن عامر وحده على صيغة الجواب، وهو فتح همزة «أشدد»، وضم همزة «أشركه»، وكلاهما همزة قطع للمتكلم فيهما، ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر، أن يجعل أخي مرفوعاً على الابتداء، واشدد به خبره ويوقف على هارون.

{كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً}، أي كي ننزهك عمّا لا يليق بك من الصفات، والأفعال التي من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية، ويقبله منه جماعته الباغية، من ادّعاء الشركة في الألوهية، ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال، والجمال، والجلال، زماناً كثيراً من جملته، زمان دعوة فرعون، وأوان المحاجة معه، وهذا إشارة إلى أن للجليس الصالح، والصديق الصديق، أثراً عظيماً في المعاونة على كثرة الطاعات، والمرافقة في اقتحام عقبات السلوك وقطع مفاوزه. {إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً} أي عالماً بأن ما دعوتك به مما يفيدنا في تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة، وبأن هارون نعم الردء في أداء ما أمرت به. {قَالَ} الله تعالى: {قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَىٰ} أي قد أردت إعطاء مسؤولك ألبتة، {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ}، أي في وقت غير هذا الوقت من غير سابقة دعاء منك وطلب. فلأن أنعم عليك بمثل تلك النعم التامة وأنت طالب له أولى. {إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ} أي ألهمنا أمك الذي يلهم، أو أريناها في منامها الذي يرى، لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون. {أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ}،

أي بأن تضعي الصبي في الصندوق، {فَ قْذِفِيهِ} أي فألقي الصبي، {فِى لْيَمِّ} أي في بحر النيل، {فَلْيُلْقِهِ لْيَمُّ بِالسَّاحِلِ}، أي فيلقي بحر النيل هذا الصبي على الشط. والأمر بمعنى الخبر، وحكمة صورة الأمر لوجوب وقوع ذلك، لتعلّق الإرادة الربانية به.

روي أن أم موسى اتخذت تابوتاً، وجعلت فيه قطناً محلوجاً، ووضعت فيه موسى عليه السلام، وقيرت رأس التابوت، وشقوقه بالقار، ثم ألقته في نيل مصر، وكان يشرع منه نهر كبير إلى دار فرعون، فرفعه الماء إليه، فأتى به إلى بركة في البستان، وكان فرعون جالساً على رأس البركة مع امرأته آسية بنت مزاحم، إذ بتابوت بجيء به الماء، فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجواري بإخراج ما فيه، ففتحوا رأس التابوت فإذا صبي من أصبح الناس وجهاً، فلما رآه فرعون أحبه شديداً لا يتمالك أن يصبر عنه. {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُ}، وهو فرعون.

فالأول: باعتبار الواقع لكفره وعتّوه.

والثاني: باعتبار ما يؤول إليه، وما لو ظهر لفرعون حال موسى لقتله، وفي هذا الأمر بقذفه في البحر، وفي وقوعه في يد العدو، لطفٌ خفيٌ مندرج تحت قهر صوري. {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى} أي وألقيت عليك محبة عظيمة حاصلة مني، واقعة بخلقي، فلذلك أحبتك امرأة فرعون، حتى قالت لفرعون: «قرة عين لي ولك» لا تقتلوه.

ويروى أنه عليه السلام، كانت على وجهه مسحة جمال، وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه. {وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى}، معطوف على علة مقدرة متعلقة بألقيت، والتقدير وألقيت عليك المحبة ليعطف عليك، ولتربى بالشفقة بحفظي. وقرأ العامة «لتصنع» بالبناء للمجهول، بإضمار «أن» بعد لام «كي»، وقرىء بكسر اللام، وسكونها، وبالجزم بلام الأمر. وقرأ الحسن وأبو نهيك، بفتح التاء بالبناء للفاعل. أي ليكون تصرفك على رعاية مني.

{إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ}، مريم وكانت شقيقته، وهي غير أم عيسى، وهذا الظرف متعلق بألقيت، أي ألقيت عليك محبة مني في وقت مشي أختك، أو بتصنع أي لتربى، وبحسن إليك في هذا الوقت، {فَتَقُولُ} لفرعون وآسية: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ} أي يربيه، ويرضعه.

ويروى أنه لما فشا الخبر بمصر، أن آل فرعون أخذوا غلاماً في النيل وكان لا يرتضع من ثدي كل امرأة يؤتى بها، واضطروا إلى تتبع النساء. فخرجت أخته مريم لتعرف خبره، فدخلت قصر فرعون، فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم. ثم جاءت

بالأم، فقبل ثديها. فرجع إلى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير. فذلك قوله تعالى: {فَرَجَعْنٰكَ إِلَىٰ أُمِّكَ}، معطوف على محذوف. أي فقالوا: دلينا على من تكفله، فجاءت بأمك فرددناك إلى أمك. {كَى تَقَرَّ عَيْنُها} فتطيب نفسها بلقائك ورؤيتك. {وَلاَ تَحْزَنَ} أي ليزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها إلى باطنك، أو كي لا تحزن أنت بفراقها.

وكانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر، أو أربعة، قبل إلقائه في اليم. {وَقَتَلْتَ نَفْساً} قبطياً طباخاً لفرعون اسمه قاب قان، وكان عمره إذ ذاك ثلاثين سنة. {فَنَجَّيْنٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ} أي من غم اقتصاص فرعون منه، بالإنجاء منه بالمهاجرة إلى مدين، ومن غم عقاب الله تعالى، حيث قتله لا بأمر الله بالمغفرة، وكان قتله للكافر خطأ. {وَفَتَنّٰكَ فُتُوناً} أي أوقعناك في محنة بعد محنة، وخلّصناك منها. فإنه ولد في عام يقتل فيه الولدان. وألقته أمه في البحر، والتقطه آل فرعون، وامتنع من ارتضاع الأجانب، وهمّ فرعون بقتله، ووضع الجمرة في فيه، وقتل قبطياً، ثم هرب إلى مدين. {فَلَبِثْتَ سِنِينَ} أي مكثت عشر سنين، {فِى أَهْلِ مَدْيَنَ} وهي بلدة شعيب عليه السلام، على ثمان مراحل من مصر. {ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يٰمُوسَىٰ} أي ثم جئت إلى المكان الذي أونس فيه النار، ووقع فيه النداء كائناً على مقدار معين من الزمان وهو أربعون سنة، فنبأتك وأرسلتك حينئذ. {وَ ٱصْطَنَعْتُكَ} أي اصطفيتك {لِنَفْسِى} بالرسالة وبالكلام. { ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ} أي وليذهب أخوك إلى فرعون، وقومه، وبني إسرائيل، {بِـَٔايٰتِى} أي مع آياتي التي هي العصا واليد ففي كل منهما آيات شتى. فانقلاب العصا حيواناً آية، وكونها ثعباناً عظيماً لآية أخرى، وسرعة حركته مع عظيم جرمه آية أخرى، ثم إنه عليه السلام يدخل يده في فيه فلا يضره آية أخرى، ثم انقلابه عصا آية أخرى. وكذلك اليد فإن بياضها آية، وشعاعها آية أخرى، ثم رجوعها إلى حالتها الأولى آية أخرى. {وَلاَ تَنِيَا فِى ذِكْرِى} أي لا تضعفا عن تبليغ رسالتي، فإن الذكر يطلق على كل عبادة، والتبليغ من أعظم العبادات. { ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ}.

روي أن الله تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر، أن يتلقى موسى عليه السلام {إِنَّهُ طَغَىٰ} أي تكبر بادعائه الربوبية، {فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً} فإن تليين القول، مما يكسر سورة عناد العتاة، ويلين عريكة الطغاة، وإن فرعون كان قد ربّاه عليه السلام، فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق. {لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ} أي قولا له قولاً ليّناً على أن تكونا راجيين لأن يقبل وعظكما أو يخشى الله فيرجع من الإنكار، إلى الإقرار بالحق. فإن لم ينتقل من

الإنكار، إلى الإقرار لكنه إذا حصل في قلبه الخوف ترك الإنكار. وإن لم ينتقل إلى الإقرار، فإن ترك الإنكار، خير من الإصرار على الإنكار. وفائدة إرسالهما مع علم الله بأن فرعون لا يؤمن إلزام الحجة من الله، وقطع المعذرة عن فرعون، وإظهار الآيات. ويروى عن كعب أنه لمكتوب في التوراة: «فقولا له قولاً ليناً وسأقسي قلبه فلا يؤمن». {قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ} أي أن يعجّل علينا بالعقوبة، بأن لا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة. أي إنا نخاف فوات القيام لتبليغ الرسالة كما أمرتنا، إذا قتلنا. وقرىء «يفرط» بضم الياء، وكسر الراء، أي نخاف أن يحمله حامل من ادعاء الربوبية، أو حبه للرياسة، والمملكة، أو قومه المتمردين على المعالجة بالعقاب. {أَوْ أَن يَطْغَىٰ}، أي يزداد تكبراً إلى أن يقول في شأنك ما لا ينبغي لجراءته عليك، وقساوة قلبه.

{قَالَ} الله تعالى: {لاَ تَخَافَآ}، مما عرض في قلبكما من أذية فرعون لكما، ومن ازدياد كفره. {إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ}، أي إنني حافظكما سميعاً وبصيراً. قال القفال: يحتمل أن يكون قوله تعالى: {أَسْمَعُ وَأَرَىٰ} مقابلاً لقولهما {أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا}، أي أن يعدو علينا بأن لا يسمع منا، أو أن يطغى، أي يغلب علينا بأن يقتلنا. فقال الله تعالى {إِنَّنِى مَعَكُمَا} أي معينكما، وعالم بما يليق من حالكما معه، أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما، وأرى أفعاله فلا أتركه يفعل بكما ما تكرهانه. {فَأْتِيَاهُ} أي فلتكونا واصلين إلى فرعون، {فَقُولآ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ} إليك، {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىۤ إِسْرَٰءِيلَ}، نذهب بهم إلى أرضهم وفي ذلك إدخال النقص على ملكه، لأنه كان محتاجاً إليهم فيما يريده من الأعمال، من بناء أو غيره {وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ} بالأمور الشاقة كالحفر، ونقل الأحجار، وقتل ذكور أولادهم، عاماً دون عام، واستخدام نسائهم. {قَدْ جِئْنَٰكَ بِأَايَةٍ مِّن رَّبِّكَ}، أي بإثبات الدعوى ببرهانها. فهو بيان من عند الله. {وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ}، أي السلامة في الدارين، من عذاب الله لمن صدق آيات الله الهادية إلى الحق. وهذا من جملة قوله تعالى الذي أمرهما أن يقولاه لفرعون، أي {مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ} الخ. {إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ}، من جهة ربنا، {أَنَّ ٱلْعَذَابَ} الدنيوي والأخروي، {عَلَىٰ مَن كَذَّبَ} بآياته تعالى {وَتَوَلَّىٰ}، أي أعرض عن قبولها. {قَالَ} أي فرعون بعد ما أتياه وبلّغا ما أمرا به، {فَمَن رَّبُّكُمَا يٰمُوسَىٰ}، لم يقل فمن ربي، مع أن حق الجواب كذلك، لغاية عتوّه أي إذا كنتما رسولَي ربكما فأخبرا من ربكما الذي أرسلكما وتخصيص النداء بموسى، بعد مخاطبته لهما معاً لأنه الأصل في الرسالة، وهارون وزيره. {قَالَ} أي موسى مجيباً

له: {رَبُّنَا ٱلَّذِيۤ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىءٍ}، من أنواع المخلوقات {خَلْقَهُ} أي صورته اللائق بما نيط به من الخواص، والمنافع. أو أعطى خلقه كل شيء يحتاجون إليه وينتفعون به. وتقديم المفعول الثاني للاعتناء به. {ثُمَّ هَدَىٰ}، إلى طريق الإنتفاع من الأكل، والشرب، والجماع. {قَالَ} أي فرعون لموسى: {فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلأُولَىٰ}، أي ما حال الأمم الماضية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة، أي فلما ذكر موسى عليه السلام برهاناً نيراً على هذا المطلوب، خاف فرعون أن يزيد موسى في تصوير تلك الحجة، فيظهر للناس صدقه عليه السلام، وحقيقة مقالاته، وتبين عندهم بطلان خرافات نفسه. فأراد فرعون أن يصرف موسى عليه السلام عن ذلك الكلام الذي يتعلق بالرسالة، إلى الحكايات. فعسى يظهر منه نوع غفلة، فيرتقي فرعون إلى أن يدعي قدام قومه نوع معرفة. فقال: ما حال القرون الحالية {قَالَ} موسى: {عِلْمُهَا} أي علم حالهم {عِندَ رَبِّى}، فلا يعلمها إلا الله، وإنما أنا عبد لا أعلم منها إلا ما علمنيه. {فِى كِتَٰبٍ}، أي ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، يكون المكتوب فيه يظهر للملائكة، فيكون ذل ك زيادة لهم في الاستدلال على أنه تعالى عالم لكل المعلومات، منزّه عن السهو، والغفلة، أو المعنى. إن بقاء المعلومات في علمه تعالى كبقاء المكتوب في الكتاب، فلا يزول شيء منها عن علم ه تعالى. {لاَّ يَضِلُّ رَبِّى}، أي لا يخطىء عن معرفة الأشياء، ولا يخفى شيء عن علمه، {وَلاَ يَنسَى} شيئاً علمه.

{ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ مَهْداً} أي فراشاً. وقرأ عاصم وحمزة بفتح الميم وسكون الهاء. والباقون بكسر الميم وفتح الهاء مع الألف. {وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً}، أي جعل لكم في الأرض طرقاً تذهبون وتجيئون فيها. {وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً}، هذا تمام كلام موسى عليه السلام، ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه، تتميماً لكلام موسى لخطاب أهل مكة فقال: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ} أي بذلك الماء، {أَزْوَاجاً}، أي أصنافاً، {مِّن نَّبَٰتٍ شَتَّىٰ}، أي مختلفة في الطعم والرائحة والشكل والنفع، بعضها صالح للناس، وبعضها للبهائم، على اختلاف وجوه الصلاح. وقيل: هذا من تمام كلام موسى عليه السلام، كأنه يقول: ربي الذي جعل لكم كذا وكذا، فأخرجنا نحن معشر عباده بذلك الماء بالحراثة، أزواجاً من نبات شتى. وقال صاحب الكشاف: إن كلام موسى عليه السلام تم عند قوله: {وَلاَ يَنسَى} ثم ابتدأ كلام الله، من قوله { ٱلَّذِى جَعَلَ} فهو خبر مبتدأ محذوف، والتقدير هو الذي جعل، ويكون الانتقال من الغيبة إلى التكلم، التفاتاً للدلالة على كمال القدرة والحكمة.

وللإعلام بأن ذلك لا يتأتى إلا من قادر مطاع عظيم الشأن. {كُلُواْ وَ ٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ}، حال من ضمير، أخرجنا على إرادة القول، أي فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم: كلوا وارعوا أنعامكم، أي مبيحين لكم الأكل وعلف الأنعام، آذنين في الانتفاع بها. {إِنَّ فِى ذَٰلِكَ} أي في اختلاف النبات في الشكل والطبع، {لأيٰتٍ} واضحة الدلالة على شؤون الله تعالى، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، {لأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ} أي لذوي العقول الناهية عن الأباطيل. {مِنْهَا} أي الأرض، {خَلَقْنٰكُمْ} وذلك إذا وقعت النطفة، فيخلق الله الولد من النطفة، ومن التراب. وأيضاً أن تولّد الإنسان إنما هو من النطفة، ودم الطمث، وهما يتولّدان من الأغذية، وهي تنتهي إلى النبات، وهي إنما تحدث من امتزاج الماء والتراب. {وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ}، إلى الموضع الذي أخذ ترابكم منه مدفونين فيه. {وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ}، يوم البعث على الهيئة السابقة. {وَلَقَدْ أَرَيْنٰهُ} أي والله لقد بصّرنا فرعون {ءَايٰتِنَا كُلَّهَا}.

روي أن موسى لما ألقى عصاه انقلبت ثعباناً أشعر فاغراً فاه، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل على الأرض، والأعلى على سور القصر، وتوجّه نحو فرعون، فهرب وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً من قومه، فصاح فرعون يا موسى: أنشدك بالذي أرسلك ألا أخذته، فأخذه، فعاد عصاً.

وروي أنها انقلبت حية ارتفعت في السماء قَدَرَ ميلٍ، ثم انحطت مقبلة نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مرني بما شئت، ويقول فرعون: يا موسى أنشدك إلخ. ونزع موسى يده من جيبه، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً، خارجاً عن حدود العادات، قد غلب شعاعه شعاع الشمس ففي تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة، ولذلك أكدت بكلها. {فَكَذَّبَ} موسى عليه السلام، {وَأَبَىٰ} أن يؤمن ويطيع لعتوّه {قَالَ} لموسى خوفاً من أن يتبعه الناس: {أَجِئْتَنَا} من مكانك الذي كنت فيه بعدما غبت عنا، {لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا} مصر، {بِسِحْرِكَ} أي الذي هو العصا واليد البيضاء، {يٰمُوسَىٰ} وليكون لك الملك فيها، {فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ} أي مثل سحرك في الغرابة. {فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً} أي وعداً لإتيانك بالسحر، {لاَّ نُخْلِفُهُ}، أي ذلك الوعد، {نَحْنُ وَلاَ أَنتَ}، ف «موعداً» مفعول أول، والظرف مفعول ثان. {مَكَاناً} مفعول فيه منصوب ب «ٱجعل»، {سُوًى}.

قرأ عاصم وحمزة وابن عامر بضم السين، أي تستوي مسافة المكان على الفريقين، والباقون بكسرها، أي غير هذا المكان الذي

نحن فيه الآن. {قَالَ} موسى: {مَوْعِدُكُمْ} أي أجلكم {يَوْمُ ٱلزِّينَةِ}، وهو يوم النيروز، أو يوم عيد لهم، وكان يوم عاشوراء. واتفق أنه في هذه الواقعة يوم سبت. وقرأ الحسن، والأعمش، وعيسى، وعاصم، وغيرهم «يوم» بالنصب أي موعدكم يقع يوم الزينة، {وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى}، عطف على الزينة أو على يوم.

{فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ}، أي انصرف عن المجلس وفارق موسى، {فَجَمَعَ كَيْدَهُ}، أي ما يكاد به من السحرة وأدواتهم، {ثُمَّ أَتَىٰ} بهم الموعد وأتى موسى أيضاً. {قَالَ لَهُمْ}. أي لأهل الكيد، {مُّوسَىٰ} بطريق النصيحة: {وَيْلَكُمْ} أي ألزمكم الله ضيقاً في الدنيا، {لاَ تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً}، بإتيان السحر في معارضة آيات الله وبادعائكم أن الآيات التي ستظهر على يدي سحر {فَيُسْحِتَكُم}.

قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء، وكسر الحاء والباقون بفتحهما، أي فيهلككم، {بِعَذَابٍ} في الدنيا بالاستئصال أو في الآخرة بالنار. {وَقَدْ خَابَ} أي حرم عن المقصود {مَنِ ٱفْتَرَىٰ} على الله. {فَتَنَٰزَعُوٓاْ} أي السحرة، {أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، أي تشاوروا ليستقروا على شيء واحد حين سمعوا كلام موسى عليه السلام، {وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ} من فرعون وملئه، فقالوا في نجواهم: إن غلب علينا موسى آمنا به. ثم {قَالُواْ} بطريق العلانية، أي قال السحرة، وقيل: قال لهم فرعون ومن معه: {إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَاحِرَٰنِ}. قرأ ابن كثير وحفص بسكون النون من «إن»، وشدّدها الباقون. وشدّد ابن كثير نون «هذان»، وقرأ عمرو «هذين» بالياء. {يُرِيدَانِ} أي موسى وهارون، {أَن يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ}، أي أرض مصر، {بِسِحْرِهِمَا} الذي أظهراه لكم، {وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ}، أي يذهبا دينكم، الذي هو أفضل الأديان بإعلاء دينهما. أو يقال: يذهبا بإشراف قومكم بميلهم إليهما لغلبتهما وهم بنو إسرائيل فإنهم ذوو علم ومال. {فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ}.

وقرأ أبو عمرو بفتح الميم، وبوصل الهمزة، أي فأجمعوا أدوات سحركم فلا تتركوا شيئاً منها. وقرأ الباقون بكسر الميم، وقطع الهمزة، أي ليكن عزمكم مجمعاً عليه لا تختلفوا، {ثُمَّ ٱئْتُواْ} للقاء موسى وهارون، {صَفّاً}، أي مصطفين مجتمعين لكي يكون الصف أنظم لأمركم، وأشد لهيبتكم.

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا. {وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ}، أي وقد فاز بالمطلوب من غلب. ومرادهم بالمطلوب الأجر والتقريب من فرعون على ما وعدهم بذلك. ومرادهم بمن غلب أنفسهم جميعاً،

أو من غلب منهم حثالهم على بذل المجهود في المغالبة. {قَـالُواْ} أي السحرة لموسى: {يٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ}، أي اختر إما إلقاءك ما معك قبلنا، وإما القاءنا ما معنا قبلك.

وهذا التخيير حسن أدب منهم، وتواضع لموسى عليه السلام، لأن لين القول مع الخصم إن لم ينفع، لم يضر، بل نفعهم، ولذلك رزقهم الله تعالى الإيمان ببركته. ثم إن موسى عليه السلام، قابل أدبهم بأدب أحسن من أدبهم، حيث بتّ القول بإلقائهم أولاً لأنه فهم أن مرادهم الابتداء. {قَالَ بَلْ أَلْقُواْ}، أي قال لهم موسى: لا ألقي أنا أولاً بل ألقوا أنتم أولاً إن كنتم محقين، فألقوا ما معهم من الحبال والعصي، ميلاً من هذا الجانب، وميلاً من هذا الجانب.

{فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ} أي موسى، {مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا} حيات {تَسْعَىٰ}. «فإذا» ظرفية تطلب متعلقاً ينصبها من فعل المفاجأة، وجملة ابتدائية تضاف إليها. أي ففاجأ موسى إذا حبالهم وعصيهم، مخيلة إلى موسى السعي، كسعي ما يكون حياً من الحيات، من أجل سحرهم، وذلك أنهم كانوا لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليه الشمس، اضطربت واهتزت فخيّل إليه أنها تتحرك {فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ} أي أضمر موسى في قلبه بعض خوف من أن لا يظفر بهم، فيقتلون من آمن به عليه السلام {قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلأَعْلَىٰ}، أي الغالب عليهم.

وقيل: إن موسى خاف من مفاجأته بمقتضى طبع البشرية من النفرة من الحيات، ومن الاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه، فإن خوف البشرية مركوز في جبلّة الإنسان، وذلك مثل ما خاف من عصاه أول ما رآها. ولذلك قال تعالى: {إِنَّكَ أَنتَ ٱلأَعْلَىٰ} أي أعلى درجة من أن تخاف من المخلوقات دون الخالق. {وَأَلْقِ}، على الأرض {مَا فِى يَمِينِكَ}، يا موسى وإنما لم يقل وألق عصاك تعظيماً لشأنها، أي لا تحفل بهذه الأجرام فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء عنده، فألقه، {تَلْقَفْ مَا صَنَعُواْ}، أي تلقم ما طرحوا من الحبال والعصي، الذي خيل إليك سعيها وخفتها.

وقرأ إبن عامر «تلقّف» بتشديد القاف، وبالرفع. والعامة بالجزم، وحفص بسكون اللام وبالجزم {إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَاحِرٍ} أي لأن الذي صنعوه عمل ساحرٍ. وقرأ حمزة، والكسائي و «كيد سحر» بكسر، فسكون، على أن الإضافة للبيان. وقرأ مجاهد، وحميد، وزيد بن علي، بنصب «كيد ساحرٍ»، على أنه مفعول به، و «ما» كافة مزيدة، {وَلاَ يُفْلِحُ ٱلسَّحِرُ}، أي لا يحصل له مقصوده

بالسحر خيراً كان أو شراً، {حَيْثُ أَتَىٰ} أي أينما كان، وهذا من تمام التعليل.

{فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّداً} أي فألقى موسى عصاه، فتلقّفت حبال السحرة وعصيّهم فسجدوا، فإنهم من سرعة سجودهم كأنهم ألقوا، فما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم للشكر والسجود. روي أنهم في سجودهم رأوا الجنة، ومنازلهم التي يصيرون إليها، ثم رفعوا رؤوسهم، {قَالُوۤاْ آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ} قال رئيسهم: كنا نغالب الناس بالسحر، وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا، فلو كان هذا سحراً فأين ما ألقيناه؟ {قَالَ} لهم فرعون: {ءَامَنتُمْ لَهُ} أي لموسى {قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ} أي من غير أن آذن لكم في الإيمان له، {إِنَّهُ} أي موسى {لَكَبِيرُكُمُ} أي أستاذكم، {ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ}، وأنكم تلامذته في السحر، فتوافقتم على أن تظهروا العجز من أنفسكم ترويجاً لشأنه وتفخيماً لأمره، {فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ}، أي في حال كونها مختلفات، والقطع من خلاف، أن تقطع اليد اليمنى، والرجل اليسرى، لا كل واحد من العضوين، فإن هذا يد، وذاك رجل، وهذا يمين وذاك شمال، {وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ}، أي عليها، وأتى بكلمة «في»، للدلالة على إبقائهم عليها زماناً مديداً، تشبيهاً لاستمرارهم عليها باستقرار المظروف في الظرف، {وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ} أي أنا أو موسى، {أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَىٰ}. وهذا لقصد توضيع موسى عليه السلام والهزؤ به، لأنه عليه السلام لم يكن من التعذيب في شيء. أو لإرادة أن إيمانهم كان على خوف من موسى، حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم، فخافوا على أنفسهم أيضاً، وفي ذلك تبجّح فرعون بما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب. {قَالُواْ}: أي السحرة لفرعون غير مكترثين بوعيده: {لَن نُّؤْثِرَكَ}، أي لن نختار اتباعك {عَلَىٰ مَا جَآءَنَا} من الله تعالى على يد موسى عليه السلام، {مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ} أي المعجزات الظاهرة الدالة على صدق موسى. {وَ ٱلَّذِى فَطَرَنَا} أي ولا على عبادة الذي خلقنا، {فَ ٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ} أي فاصنع ما أنت صانعه، {إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ}، أي لأنك إنما تحكم علينا في الدنيا فقط، وليس لك علينا سلطان في الآخرة، وأنت تجزى على حكمك في الآخرة، وما لنا من رغبة في حلاوة الدنيا ولا رهبة من عذابها. {إِنَّآ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا}، أي شركنا ومعاصينا، {وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ}، أي وليغفر لنا السحر الذي عملناه في معارضة موسى رغبةً في خيرك، ورهبةً من شرك، بإكراهك علينا في الحضور إليك من المدائن القاصية،

{وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} أي فخيره تعالى أبقى من خيرك لمن أطاعه، وعذابه أبقى من عذابك لمن عصاه، {إِنَّهُ} أي لأنه الشأن، {مَن يَأْتِ رَبَّهُ} يوم القيامة {مُجْرِماً}، بأن مات على الكفر، {فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا}، فينتهي عذابه ويستريح {وَلاَ يَحْيَىٰ}، حياة ينتفع بها. {وَمَن يَأْتِهِ} يوم القيامة {مُؤْمِناً}، بما وعد من الثواب، وأوعد من العقاب على لسان أنبيائه، {قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ} التي جاءوا بها، {فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ}، أي المنازل الرفيعة في الجنان. {جَنَّٰتُ عَدْنٍ}، وهي في وسط الجنان، {تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ}، أي الدرجات العلى، {جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ}، أي تطهر من الذنوب. {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى}.

قرأ نافع وابن كثير بكسر النون، وهمزة وصل. أي سر ببني إسرائيل أول الليل من أرض مصر إلى البحر، {فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى ٱلْبَحْرِ يَبَساً}، أي اجعل لهم بالضرب بعصاك طريقاً في البحر يابساً ليس فيه وحلٌ ولا نداوة. {لاَّ تَخَافُ دَرَكاً}، أي إدراك فرعون، {وَلاَ تَخْشَىٰ}، من الغرق. وقرأ حمزة «لا تخف» بالجزم جواباً للأمر.

{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ}، أي فلحقهم فرعون مع جموعه، {فَغَشِيَهُمْ مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ}، أي فسترهم ما سترهم من البحر. {وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ}، أي سلك بهم مسلكاً أدّاهم إلى الهلاك في الدين والدنيا معاً، حيث ماتوا على الكفر بالعذاب الدنيوي المتصل بالعذاب الأخروي. {وَمَا هَدَىٰ} أي ما أرشدهم إلى طريق موصل إلى مطلب دنيوي وأخروي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر، وكان موسى وبنو إسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلي والدواب لعيد يخرجون إليه، فخرج بهم ليلاً وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف، ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين، وخرج فرعون في طلب موسى، وعلى مقدمته ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب. فلما انتهى موسى إلى البحر قال: ههنا أُمرت، فأوحى الله إليه: أن اضرب بعصاك البحر، فضرب، فانفلق، فقال لهم موسى عليه السلام: أدخلوا فيه. فقالوا: وأرضه رطبة، فدعا الله تعالى فهبت عليها الصبا فجفت. فقالوا: نخاف الغرق في بعضنا، فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضاً، ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر.

فأقبل فرعون إلى تلك الطرق، فقال قومه له: إن موسى قد سحر البحر فصار كما ترى، وكان على فرس حصان، فأقبل جبريل على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة، فسار جبريل بين

يدي فرعون، فأبصر الحصان الحجر، فاقتحم بفرعون على أثرها، فصاحت الملائكة في الناس: الحقوا الملك، حتى إذا دخل آخرهم، وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليها فغرقوا، فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم، فقالوا: ما هذا يا موسى؟ قال: قد أغرق الله فرعون وقومه، فرجعوا حتى ينظروا إليهم، وقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم، فدعا، فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم. {يٰبَنِى إِسْرٰءِيلَ} أي وقلنا: يا أولاد يعقوب، {قَدْ أَنجَيْنٰكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ} فرعون وقومه بإغراقهم، {وَوَاعَدْنٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلأَيْمَنَ}، أي واعدناكم إتيان جانب الجبل الأيمن، لمن انطلق من مصر إلى الشام. فإن الله أمر أن يأتي منهم سبعون مع موسى إلى طور سيناء لأخذ التوراة، ففيه صلاح دينهم ودنياهم وأخراهم، {وَنَزَّلْنَا} في التيه، {عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ}، فالمنّ: هو شيء «حلو أبيض مثل الثلج، كان ينزل من الفجر إلى طلوع الشمس، لكل إنسان صاع». والسلوى: «هو السماني يبعثه الجنوب عليهم فيذبح الرجل منهم ما يكفيه». {كُلُواْ مِن طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ}، أي من لذائذه. وقرأ حمزة والكسائي: «قد أنجيتكم»، و «وعدتكم»، و «رزقتكم» بتاء المتكلم. والباقون بنون العظمة، واتفقوا على ونزلنا بالنون. وأسقط أبو عمرو ألف «واعدنا». {وَلاَ تَطْغَوْاْ فِيهِ} أي فيما رزقناكم بأن لم تشكروه. قال ابن عباس: أي لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه، {فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى}، بكسر الحاء أي يجب عليكم عقوبتي. قرأ الأعمش والكسائي بضم الحاء أي يُنزل {وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ}، أي هلك ووقرأ الكسائي بضم اللام الأولى. {وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ} من الشرك والمعاصي، {وَآمَنَ} بما يجب الإيمان به، {وَعَمِلَ صٰلِحاً} أي مستقيماً عند الشرع والعقل، {ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ} أي استمرّ على الهدى من غير تقصير، ومات على ذلك فلما ذهب موسى عليه السلام مع السبعين إلى الميقات تعجّل إلى الميعاد قبلهم، قال الله له: {وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَومِكَ يٰمُوسَىٰ} أي وقلنا له: أي شيء أعجبك منفرداً عن النقباء.

{قَالَ هُمْ أُوْلاۤءِ عَلَىٰ أَثَرِى} أي هم معي، وإنما سبقتهم بخطى يسيرة ظننت أنها لا تخلّ بالمعيّة ولا تقدح في الاستصحاب. {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ} عني بمسارعتي إلى الامتثال بأمرك، واعتنائي بالوفاء بعهدك، {قَالَ} تعالى: يا موسى {فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا

قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ}، أي إبتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم.

وهم الذين خلفهم موسى مع هارون، وكانوا ستمائة ألف، ما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثنا عشر ألفاً. {وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ}، حيث كان هو المدبّر في الفتنة، واسمه موسى بن ظفر، وكان منافقاً قد أظهر الإسلام، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان قد ربّاه جبريل فكان يغذيه من أصابعه الثلاثة، فيخرج له من أحدها لبن، ومن الأخرى سمن، ومن الأخرى عسل. وذلك لأن فرعون لما شرع في ذبح الولدان، كانت المرأة من بني إسرائيل، تأخذ ولدها وتلقيه في حفيرة أو كهف من جبل، أو غير ذلك، وكانت الملائكة تتعهد هذه الأطفال بالتربية حتى يكبروا فيدخلوا بين الناس.

وقرىء وأضلّهم السامري على صيغة التفضيل، أي أشدهم ضلالاً السامري، وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة. {فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ}، بعدما استوفى الأربعين ليلة وأخذ التوراة {غَضْبَٰنَ أَسِفاً}، أي حزيناً.

روي أنه لما رجع موسى سمع الصياح، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين كانوا معه: هذا صوت الفتنة، {قَالَ يٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً} بأن يعطيكم التوراة، فيها ما فيها من الهدى؟ {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ} أي أوعدكم ذلك فطال عليكم مدة الإنجاز، ومدة نعم الله تعالى عليكم من إنجائه إياكم من فرعون، أفنسيتم ذلك العهد أو تعمدتم المعصية؟ {أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ} بسبب عبادة العجل {فَأَخْلَفْتُمْ مَّوْعِدِى}، بالإقامة على طاعة الله تعالى؟ {قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}.

قرأ حمزة والكسائي بضم الميم، أي بسلطاننا وقوتنا. ونافع وعاصم، بفتح الميم. وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر أي بأمر كنا نملكه ونريده. {وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ}. قرأ ابن كثير، ونافع، وحفص، وابن عامر بضم الحاء، وكسر الميم مشددة، أي أمرنا أن نحمل أحمالاً من حليّ القبط التي استعرناها منهم، حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وفي الواقع ليس للعرس، أي فإن موسى أمرهم باستعارة الحليّ والخروج بها. وقرأ حمزة والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، في رواية أبي بكر بفتح الحاء والميم مخففة، أي حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من حليّ آل فرعون، {فَقَذَفْنَاهَا} أي فطرحنا الحليّ في النار بأمر السامري.

روي أنه قال لهم: إنما تأخر عنكم مجيء موسى عليه السلام لما معكم من الأوزار، أي فهو محبوس عقوبة بالحلي، فالرأي أن تحفروا لها حفيرة، وتوقدوا فيها ناراً، وتقذفوها فيها لتخلصوا من ذنبها. {فَكَذَلِكَ}، أي فمثل ذلك القذف، {أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ} ما كان معه منها، {فَأَخْرَجَ} أي السامري {لَهُمْ عِجْلاً} أي صورة عجل من تلك الحلي المذابة، أي فصاغ لهم السامري من الذهب الذي ألقوا في النار في ثلاثة أيام، {جَسَداً} أي حال كون العجل جسداً صغيراً من ذهب بلا روح. {لَّهُ خُوَارٌ} أي صوت يسمع. أي أن السامري صوّر صورة على شكل العجل. وجعل فيها منافذ ومخارق، بحيث تدخل فيها الرياح، فيخرج صوت يشبه صوت العجل.

قال ابن عباس: لا، والله ما كان له صوت قط، وإنما كان الريح يدخل في دبره فيخرج مِنْ فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك. {فَقَالُواْ} أي السامري ومن تبعه في بادىء الرأي لمن توقف من بني إسرائيل: {هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ}، أي موسى أن إلهه هنا فيطلبه في الطور. وفي موضع آخر أو فنسي السامري الاستدلال على حدوث الأجسام، وأن الإله لا يحلّ في شيء ولا يحل فيه شيء.

{أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ} أي العجل، {إِلَيْهِمْ قَوْلاً}. أي ألا يتفكر السامري وأصحابه فلا يعلمون أنه لا يرجع إليهم كلاماً. وقرىء «يرجع» بالنصب، أي ألا ينظرون فلا يبصرون عدم رجعه إليهم، قولاً من الأقوال، و «أن» الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين. {وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً} أي، ولا يقدر العجل على أن يدفع عنهم ضراً، ولا أن يجرّ لهم نفعاً فيخافوا كما يخافون فرعون، ويرجوا منه كما يرجون من فرعون، فكيف يقولون ذلك؟ {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ}، أي من قبل مجيء موسى عليه السلام: {يٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ}، أي أوقعتم في الفتنة بالعجل، {وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ} أي إن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن. وإنما قال هارون ذلك شفقة منه على نفسه، وعلى الخلق.

كما قال صلى الله عليه وسلم: «من أصبح وهمّه غير الله فليس من الله في شيء، ومن أصبح لا يهتمّ بالمسلمين فليس منهم».

ويروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه، إذ نظر إلى شاب على باب المسجد فقال: «من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا»، فسمع الشاب ذلك فولّى، فقال: إلهي وسيدي هذا رسولك يشهد عليّ بأني من أهل النار، وأنا أعلم أنه صادق، فإذا كان الأمر كذلك، فأسألك أن

تجعلني فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وتشعل النار بي حتى تبرّ يمينه، ولا تشعل النار بأحد آخر. فهبط جبريل عليه السلام وقال يا محمد: بشّر الشاب بأني قد أنقذته من النار بتصديقه لك، وفدائه أمتك بنفسه، وشفقته على الخلق. {قَالُواْ} في جواب هارون عليه السلام: {لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ}، أي لن نزال مقيمين على عبادة العجل، {حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ}. جعلوا رجوع موسى عليه السلام إليهم، غاية لعكوفهم على عبادة العجل بطريق التعلل والتسويف، وقد دسّوا تحت ذلك، أن موسى لا يرجع بشيء مبين اعتماداً على مقالة السامري.

واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الطرق، لأنه زجرهم عن الباطل:

أولاً: بقوله: {إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ}، وهو إزالة الشبهات لأنه لا بدّ قبل كل شيء من إماطة الأذى عن الطريق ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى.

ثانياً: بقوله: {وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ}، لأنها الأصل، وإنما خصّ هذا الموضع باسم الرحمن، لأنه عليه السلام كان ينبئهم، بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم، لأنه هو الرحمٰن كما خلصهم من آفات فرعون برحمته، ثم دعاهم.

ثالثاً: إلى معرفة النبوة بقوله: فاتبعوني، ثم دعاهم.

رابعاً: إلى الشريعة بقوله: {وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى}، ثم إنهم لجهلهم وتقليدهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال، بقولهم {لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ} فجحدوا قول هارون كما هو عادة المقلّد. فكأنهم قالوا: لا نقبل حجّتك، ولكن نقبل موسى.

روي أنهم لما قالوا ذلك: اعتزلهم هارون عليه السلام، في اثني عشر ألفاً، وهم الذين لم يعبدوا العجل. {قَالَ} موسى: {يٰهَٰرُونُ} حين سمع جوابهم له وهو مغتاظ: {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ} بعبادة العجل، {أَلاَّ تَتَّبِعَنِ} في حالي الغضب لله تعالى، والمقاتلة مع من كفر به، أي أيّ شيء دعاك إلى أن لا تتبعني في سيرتي من الأخذ على يد الظالم طوعاً أو كرهاً، فلم تركت قتالهم وتأديبهم، وتركت وصيتي، وأنت نبي الله، وأخي، ووزيري، وخليفتي في قومي؟ وأثبت الياء بعد النون ابن كثير، وقفاً ووصلاً، وأثبتها نافع وأبو عمرو، وصلاً لا وقفاً، وحذفها الباقون وصلاً ووقفاً {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى}، أي ألم تتبعني وعصيت أمري؟ وأمره عليه السلام هو ما حكاه الله تعالى عنه في قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ لاِخِيهِ هَٰرُونَ

{ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ} فلما أقام هارون معهم ولم يبالغ في منعهم، نسبه إلى مخالفة أمره.

{قَالَ} هارون لموسى: {يَبْنَؤُمَّ} ذكر هارون أمه، مع أن موسى أخوه الشقيق، ترقيقاً لقلبه. قرأ حمزة والكسائي بكسر الميم {لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلاَ بِرَأْسِى}، أي ولا بشعر رأسي.

رُوي أن موسى عليه السلام أخذ شعر رأس هارون بيمينه ولحيته بشماله من فرط غضبه لله. {إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرءِيلَ}، برأيك بسبب القتال تفريقاً لا يرجى بعده الاجتماع. {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى}، أي ولم تنتظر قدومي، فمن ذلك تركت القتال معهم. وإني رأيت أن الإصلاح، في المداراة معهم إلى أن ترجع إليهم لتكون أنت المتدارك للأمر حسبما رأيت، {قَالَ} موسى عليه السلام للسامري موبخاً له بعد سماع الاعتذارين: {فَمَا خَطْبُكَ يٰسٰمِرِيُّ} أي فيما شأنك الداعي إلى ما صنعت، وما مطلوبك مما فعلت من عبادة العجل؟ {قَالَ} أي السامري مجيباً له عليه السلام: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ}، بضم الصاد فيهما. وقرأ حمزة والكسائي، بالتاء على خطاب موسى وقومه، أي رأيت ما لم يره بنو إسرائيل، قال له موسى: وما رأيت دونهم؟ قال: رأيت جبريل لما نزل على دابة الحياة {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ}، أي حفنة من تربة موطىء فرس الملك الذي أرسل إليك ليذهب بك إلى الطور للمناجاة، وأخذ التوراة. وقرأ الحسن «قبضة» بضم القاف. وقرىء «قبصت قبصة»، بالصاد المهملة، فالضاد المعجمة للأخذ بجميع الكف، والمهملة للأخذ بأطراف الأصابع. {فَنَبَذْتُهَا} أي فطرحت المأخوذ في فم العجل المصوغ ودبره فخار، أو في الحلي المذابة.

قال أبو مسلم الأصفهاني: إن موسى عليه السلام، لما أقبل على السامري باللوم على الأمر الذي دعاه إلى إضلال القوم في باب العجل، فقال: {بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِ} الخ. أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس بحق. وقد كنت أخذت شيئاً من سنتك أيها الرسول فطرحتها، وعلى هذا فالمراد بالأثر: الدين، وبالرسول: سيدنا موسى عليه السلام.

قال الرازي: وهذا القول أقرب إلى التحقيق لأن جبريل لم يجر له فيما تقدم ذكره، وليس بمشهور عندهم باسم الرسول ولأن إضمار الكلام خلاف الأصل، ولأن جبريل ربّى السامري حال طفولته فلا يعرفه، ولو عرفه بعد البلوغ لعرف قطعاً أن موسى عليه السلام نبي صادق، ولأنه لو جاز إطلاع بعض الكفرة أن تراب فرس جبريل له خاصية الأحياء، لأطلع موسى عليه السلام على

شيء آخر يشبه ذلك، فلأجله أتى بالمعجزات. {وَكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى}، أي وزينت لي نفسي تزييناً كائناً مثل ذلك التزيين الذي فعلته من القبص، والنبذ، فالمعنى لم يدعني إلى ما فعلته أحد غيري، بل اتبعت هواي فيه.

{قَالَ} له موسى: {فَ ٱذْهَبْ} يا سامري من بين الناس، {فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ}، أي فإن قولك لا مساس ثابت لك في مدة حياتك لا ينفك عنك، فكان يصيح بأعلى صوته: لا مساس، أي إني لا أمسّ ولا أمسّ، وإذا مسّه أحدّهم أخذت الحمّى الماسّ والممسوس، فكان إذا أراد أحد أن يمسّه صاح خوفاً من الحمى، وقال: لا مساس. وحرّم موسى عليهم مكالمته، ومبايعته، وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس، فكان يهيم في البرية مع السباع والوحوش، ويقال: إن موسى همّ بقتل السامري، فقال الله تعالى: «لا تقتله فإنه سخي».{وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً} لعذابك في الآخرة {لَّن تُخْلَفَهُ}.

قرأ أهل المدينة والكوفة، بفتح اللام أي لن يخلفك الله ذلك الوعد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو والحسن بكسر اللام، أي لن تجد للوعد خلفاً ولن يتأخر عنك. {وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً}، أي الذي أقمت عابداً على إلهك ثم {لَّنُحَرِّقَنَّهُ} بالنار. ويؤيده قراءة «لنحرقنّه» بضم النون، وسكون الحاء أو «لنبردنّه» بالمبرد، ويعضده قراءة أبي جعفر، وابن محيصن «لنَحرقنّه» بفتح النون، وضم الراء، أي لنبردنّه بعد أن أحميه بالنار، حتى لان فهان على المبارد. {ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفاً} أي لنذرينّه في هواء البحر ذرواً إذا صار رماداً، أو مبروداً، كأنه هباءً. ولقد فعل موسى عليه السلام ذلك كله حينئذ، فلما فرغ موسى من إبطال ما ذهب إليه السامري، عاد إلى بيان الدين الحق فقال: {إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ} أي إنما معبودكم المستحق للعبادة الله، { ٱلَّذِى لاَ إِلَٰهَ} أي لا معبود لشيء من الأشياء موجود، {إِلاَّ هُوَ}، وحده من غير أن يشاركه شيء من الأشياء. وقرىء «الله لا إله إلا هو الرحمن رب العرش»، {وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً}، أي وسع علمه كل شيء فيعلم من يعبده ومن لا يعبده. {كَذٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ}، أي نقص عليك يا أشرف الخلق من الحوادث الماضية الجارية على الأمم الخالية قصاً مثل ذلك القصّ المارّ، زيادة في معجزاتك، وليكثر الاعتبار للمكلّفين بها في الدين. {وَقَدْ آتَيْنٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً} أي ولقد أعطيناك من عندنا قرآناً مشتملاً على هذه الأخبار. {مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ} أي عن ذلك الذكر، {فَإِنَّهُ} أي المعرض عنه، {يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وِزْراً} أي عقوبة ثقيلة، {خَٰلِدِينَ

فِيهِ} أي في حمل العقوبة، {وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ حِمْلاً}، أي بئس لهم حملاً عقوبتهم، أو بئس ما حملوا على أنفسهم من الإثم كفراً بالقرآن. {يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ}، النفخة الثانية.

قرأ الجمهور بالياء المضمومة، وفتح الفاء، وقرأ أبو عمرو بنون مفتوحة، وضم الفاء، على إسناد النفخ إلى الآمر به تعظيماً له، وقرىء بالياء المفتوحة، والضمير لله تعالى، أو لإسرافيل، وإن لم يجر ذكره لشهرته. {وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي المشركين، {يَوْمِئِذٍ} أي يوم إذ ينفخ في الصور {زُرْقاً} أي زرق العيون، سود الوجوه، لأن زرقة العيون أبغض ألوان العين إلى العرب، أو عمياً، لأن حدقة الأعمى تزرق، أو عطاشاً لأنهم من شدة العطش، يتغيّر سواد عيونهم حتى تزرق، أو طامعين فيما لا ينالونه. {يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ}، أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة لما يملأ صدورهم من الرعب، {إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً} أي ما مكثتم في القبور إلاّ عشرة أيام، لأنهم يرون من شدة أهوال ذلك اليوم، ما يقلل ذلك في أعينهم، فهم يحسبون أنهم ما لبثوا في القبور إلاّ عشرة أيام، وهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه في الدنيا لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك، اعترافاً به، وتحقيقاً لسرعة وقوعه، كأنهم قالوا قد بعثتم، وما لبثتم في القبور، إلا مدة يسيرة. {نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} في ذلك اليوم أي ليس كما قالوا. {إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً}. أي أصوبهم رأياً {إِن لَّبِثْتُمْ}، أي ما مكثتم في القبور، {إِلاَّ يَوْماً}، ونسبة هذا القول إلى أفضلهم عقلاً لكونه أدلّ على شدة الهول. {وَيَسْأَلُونَكَ} أي يسألك يا أشرف الخلق، مشركو مكة على سبيل الاستهزاء، أو بنو ثقيف، {عَنِ ٱلْجِبَالِ} أي عن أمر الجبال كيف تكون يوم القيامة، {فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً}، أي يصير الجبال كالرمل، ثم يرسل عليها الرياح، {فَيَذَرُهَا} أي فيترك الأرض بعد قلع الجبال، {قَاعاً} أي مستوياً {صَفْصَفاً} أي ملساء لا نبات فيها، {لاَّ تَرَىٰ فِيهَا} أي الأرض {عِوَجاً} أي لا تدرك فيها انخفاضاً {وَلاَ أَمْتاً} أي نتوءاً يسيراً. {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ}، أي يوم إذ نسفت الجبال، يتبع الناس صوت الداعي إلى المحشر بعد القيام من القبور، فيقبلون من كل أوب إلى جهته. والراجح أن الداعي: جبريل، والنافخ: إسرافيل، {لاَ عِوَجَ لَهُ}، أي لا يعدل الداعي عن أحد بدعائه، بل يحشر الكل. {وَخَشَعَتِ ٱلأَصْوَاتُ}، أي سكنت {لِلرَّحْمَٰنِ}، أي لهيبة الرحمن. {فَلاَ تَسْمَعُ}، يا أشرف الخلق، {إِلاَّ هَمْساً}، أي وطأ خفياً كوطء الإبل وهو خفق أقدامهم في مشيها إلى المحشر وهذا قول ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وابن زيد.

{يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُ قَوْلاً} أي يوم إذ يتبعون الداعي، لا تنفع الشفاعة أحداً من الخلق، إلا شخصاً أذن لأجله في أن يشفع له، وقبل منه قولاً واحداً من أقواله، وهو شهادة «أن لا إله إلا الله»، بأن مات على الإسلام وإن عمل السيئات، وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفسّاق وهي نافعة لهم. {يَعْلَمُ}، أي الرحمن {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، أي المتبعين للداعي وهم الخلق جميعهم، {وَمَا خَلْفَهُمْ} أي يعلم ما مضى من أحوالهم وما بقي منها، {وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ}، أي بما بين أيديهم وما خلفهم {عِلْماً وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ}، أي ذلّت المكلفون لله تعالى ذلّ الأسارى في يد الملك القهار. {وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً}، أي خسر من أشرك بالله ولم يتب. {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ}، أي بعضاً من الصالحات وهو الفرائض، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، فإن الإيمان شرط في الصحة والقبول. {فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً} أي منعاً من الثواب، {وَلاَ هَضْماً} أي نقصاً من ثوابه.

وقال أبو مسلم: الظلم: نقصٌ من الثواب، والهضم: عدم تمام حقه من التعظيم، لأن الثواب مع كونه من اللذات، لا يكون ثواباً، إلا إذا قارنه التعظيم. فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الأمرين.

وقرأ ابن كثير: «فلا يخفّ» بالجزم على النهي، أي فليأمن فالنهي عن الخوف والأمر بالأمن. {وَكَذَٰلِكَ}، ومثل إنزال هذه الآيات، {أَنزَلْنَٰهُ}، أي القرآن كله {قُرْءَاناً عَرَبِيّاً} ليفهمه العرب، {وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ}، أي وكرّرنا في القرآن نوعاً من الوعيد، {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}. أي لكي يتقوا الكفر والفواحش. {أَوْ يُحْدِثُ}، أي القرآن {لَهُمْ ذِكْراً}. أي اتعاظاً يدعوهم إلى الطاعات، وفعل ما ينبغي، فإن لم يحصل التقوى، فأقلّ ما يحصل أن يحدث القرآن لهم شرفاً وصيتاً حسناً. {فَتَعَٰلَىٰ ٱللَّهُ} أي تنزّه عن مماثلة المخلوقات في ذاته، وصفاته، وأفعاله. { ٱلْمَلِكُ}، النافذ أمره ونهيه، { ٱلْحَقُّ}، أي الثابت في ملكه. {وَلاَ تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ}. أي ولا تستعجل يا أشرف الخلق بقراءة القرآن، من قبل أن يفرغ جبريل من قراءة القرآن عليك. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا ألقى إليه جبريل الوحي، يتبعه عند تلفّظ كل حرف، وكل كلمة، لكمال اعتنائه بالحفظ، فنهي عن ذلك، وأمر باستزادة العلم من الله تعالى فقيل: {وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً} أي فهماً لإدراك حقائقه، فإنها غير متناهية. روى الترمذي، عن أبي هريرة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلّمني ما ينفعني، وزدني علماً والحمد لله

على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار». وكان ابـن مسـعود إذا قرأ هذه الآية، قال: اللهم زدني علماً ويقيناً. {وَلَقَدْ عَهِـدْنَآ إِلَـىٰ ءَادَمَ}، أي وصّيناه أن لا يأكل من الشـجرة، {مِـن قَبْـلُ}، أي مـن قبل أكله منها، {فَنَسِىَ} عهدنا وأكل منها.

وقرىء «فنسي» بالبناء للمجهول، وبتشديد السين، أي فنسّاه الشيطان. {وَلَمْ نَجِدْ لَـهُ عَزْمـاً}. أي تصـميماً علـى الاحتيـاط فـي كيفية الاجتهاد. فهو إنما أخطأ في الاجتهاد، أو لم نجد له عزماً على الذنب فإنه أخطأ ولم يتعمّد، وهذا أقرب إلـى المـدح، ف «عزمـاً» مفعول به، و «له» حال منه، أو متعلّـق ب «نجـد»، أو ب «عزمـاً» {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لأَدَمَ}، أي واذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه، حتى يتبين نسيانه لك، وفقـدان صـبره عمـا نهينـاه عنـه، {فَسَجَدُوٓاْ إِلاَّ إِبْلِيسَ}، رئيسهم {أَبَىٰ}، أي أظهـر الإبـاء، {فَقُلْنَـا} عقب ذلك: {يَٰـَادَمُ إِنَّ هَٰذَا} الذي تكبّر عليك، {عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِـكَ} حـواء، لأن إبليـس رأى آثـار نعـم اللـه تعـالى، فـي حـق آدم عليـه السلام، فإنه كان شـاباً عالمـاً وإبليـس كـان شـيخاً جـاهلاً فـأثبت فضله بفضيلة أصله، وهو النار. وبينهـا وبيـن أصـل آدم وهـو المـاء، والتراب، عداوة فثبتت تلك العداوة. {فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَـا}، بوسوسـته {مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ}. أي فتتعب ففـي طلـب القـوت فـذلك علـى الرجل دون المرأة. روي أنه هبط إلى آدم ثور أحمـر وكـان يحـرث عليه ويمسح العرق عن جبينه.

{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا} أي الجنة، {وَلاَ تَعْرَىٰوَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا}، أي لا تعطـش {فِيهَـا وَلاَ تَضْـحَىٰ}، أي لا يصـيبك حـرّ الشـمس، أو تعرق. فـالجوع: ذل البـاطن. والعـري: ذلّ الظـاهر. والظمـأ: حـرّ الباطن. والضحو: حـرّ الظـاهر. فنفـى اللـه عـن سـاكن الجنـة ذل الظاهر والباطن، وحرّ الظاهر والباطن.

وقرأ نافع، وأبو بكر، و «إنك» بكسر الهمزة استئناف أو عطف على «أن» الأولى. والبـاقون بفتحهـا عطـف علـى «أن لا تجـوع». {فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ}، أي أنهـى إليـه وسوسـته، ثـم بيّـن اللـه صورة الوسوسة بقوله تعالى: {قَالَ يَٰـَادَمُ هَـلْ أَدُلُّـكَ عَلَـىٰ شَـجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْـكٍ لاَّ يَبْلَـىٰ}. أي لا يـزول ولا يختـل، أي هـل أدلـك علـى الشجرة التي من أكل منها خلّـد، ولا يمـوت أصـلاً ودام ملكـه، إمـا علـى حـاله، أو علـى أن يصـير ملكـاً. {فَـأَكَلاَ مِنْهَـا}، أي الشـجرة {فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا}، أي ظهرت فروجهمـا لكـل منهمـا، بسـبب تساقط حلل الجنة عنهما لمّا أكلا من الشجرة. {وَطَفِقَـا يَخْصِـفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ} أي شرعا يلزقان ورق التين بعضه ببعـض، لأجل ستر عوراتهما، كلما ألزقـا بعضـه ببعـض تسـاقط. {وَعَصَـىٰ

ءَادَمُ رَبَّهُ}، بأكله من الشجرة أي خالف آدم نهي ربه، لأنه اعتقد أن النهي عن شجرة معينة، وأن غيرها ليس منهياً عنه {فَغَوَىٰ}. أي خاب من نعيم الجنة فلم يصب بأكله من الشجرة ما أراده، لأنه إنما أكل منها ليصير ملكه دائماً، فلما أكل زال ملكه، وخاب سعيه. {ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُ} أي قرّبه بالتوفيق للتوبة، {فَتَابَ عَلَيْهِ}، أي قبل توبته حين تاب هو وزوجته، {وَهَدَىٰ} إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب العصمة. {قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً} أي انزلا يا لآدم وحواء من الجنة إلى الأرض، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} فالخطاب لآدم وحواء ولإبليس. وقيل: مع آدم، وذريته قابيل وأقليما، {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى}، أي فإن يأتكم يا ذرية لآدم مني دلالة من كتاب ورسول {فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ}،أي دلالتي {فَلاَ يَضِلُّ} في الدين والدنيا {وَلاَ يَشْقَىٰ}، بسبب الدين فيها وفي الآخرة. {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى}، أي عن الهدى الداعي إلي، {فَإِنَّ لَهُ}، في الدنيا، {مَعِيشَةً ضَنكاً}. أي ضيقة، وهي معيشة الكافر فإنه يكون حريصاً على الدنيا للزيادة أبداً، فحالته مظلمة، لأن مطامح نظره مقصورة على أمتعة الدنيا، وهو خائف من انتقاصها. أما المسلم فهو يعيش في الدنيا عيشاً طيباً لتوكّله على الله تعالى، فإن المؤمن الطالب للآخرة يوسّع ببركة الإيمان. {وَنَحْشُرُهُ} أي المُعْرض عن الأدلة، {يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَعْمَىٰ}، أي فاقد البصر أي فإذا خرج هو من القبر خرج بصيراً، فإذا سيق إلى المحشر عمي، فإذا دخل النار زال عماه، ليرى محلّه وحاله. {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً} في الدنيا وعند البعث؟ {قَالَ كَذٰلِكَ}، أي مثل ذلك فعلت أنت. ثم فسّره بقوله تعالى: {أَتَتْكَ آيَٰتُنَا} أي دلائلنا في الدنيا واضحة بحيث لا تخفى على أحد، {فَنَسِيتَهَا} أي تركتها، {وَكَذٰلِكَ} أي مثل تركك آياتنا في الدنيا{ ٱلْيَوْمَ تُنْسَىٰ}. أي تترك في العذاب جزءاً وفاقاً {وَكَذٰلِكَ} أي مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية، {نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ}، بالانهماك في الشهوات، {وَلَمْ يُؤْمِن بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِ}، بل كذّبها، {وَلَعَذَابُ ٱلاٰخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ}، من عذاب الدنيا وعذاب القبر. {أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنَ ٱلْقُرُونِ}، أي أغفلوا، فلم يفعل الهداية لهم كثرة إهلاكنا للقرون الأولى.

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: أفلم نهد بالنون، أي أفلم نبيّن لأهل مكة بياناً يهتدون به كثرة من أهلكنا من القرون الماضية من أصحاب الحجر، وثمود، وقريات قوم لوط. {يَمْشُونَ فِى مَسٰكِنِهِمْ}، حال من الضمير لهم، أي حال كون هؤلاء القريش ماشين في منازل تلك القرون إذا سافروا إلى الشام مشاهدين

لآثار هلاكهم. {إِنَّ فِي ذَلِكَ} أي الإهلاك {لَأَيَـٰتٍ} ظاهرة الدلالة على الحق، {لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ}. أي لأهل العقول الناهية عن القبائح.

{وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، وهي عدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة لحكمة تقتضيه. {لَكَانَ} أي الإهلاك بجناياتهم، {لِزَاماً}، أي لازماً لهم بحيث لا يتأخر عن جناياتهم ساعة. {وَأَجَلٌ مُّسَمًّى} عطف على كلمة أي ولولا أجل مسمى، لعذابهم يوم القيامة، لما تأخر عذابهم أصلاً، {فَ صْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ}، أي لا يضطرب قلبك يا أكرم الرسل، لما صدر منهم من الأذيّة، بالشتم والتكذيب، فيما تدعيه من النبوة. فقالوا: إن محمداً ساحر، أو مجنون، أو شاعر، أو غير ذلك. فهذه الآية غير منسوخة. {وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآءِ ٱلَّيْلِ}، أي ساعاته. {فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ}. عطف على محل من «آناء» المنصوب ب «سبّح» المقرون بالفاء الزائدة، أو عطف على «قبل»، أي في طرفي نصفيه، أي في الوقت الذي يجمع الطرفين، وهو وقت الزوال، فهو نهاية للنصف الأول، وبداية للنصف الثاني، أي اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات عما ينسبونه إليه تعالى مما لا يليق به، حامداً له على ما ميّزك بالهدى. أو المعنى صلّ وأنت حامد لربك على كمال هدايته إياك، صلاة الصبح وصلاة العصر، وصلاة المغرب، والعشاء، وصلاة الظهر. {لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ}. رجاء أن تنتفع بذلك وترضى به نفسك. وقرأ الكسائي، وأبو بكر، عن عاصم، بضم التاء أي لعلك تعطى ما يرضيك.

{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ} أي لا تطل نظرهما، {إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا}، أي ألذذنا، {بِهِ أَزْوَٰجاً}، أي أصنافاً {مِّنْهُمْ}، أي الكفرة من بني قريظة والنضير. {زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} أي زينتها بدل من «أزواجاً»، أو حال من «ما» الموصولة، أو من «الهاء» في «به». {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} أي لنعذبهم في الآخرة بسببه أو لنجعل ذلك فتنة لهم، بأن يزيدوا بذلك طغياناً {وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ}. أي ما أوتيته من يسير الدنيا إذا قرنته بالطاعة، خير لك من حيث العاقبة. أبقى لأن أموالهم الغالب عليها الغصب، والسرقة، فالحلال خيرٌ وأبقى.

قال أبو رافع: نزل ضيقٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم، فبعثني إلى يهودي لبيع أو سلف، فقال: والله لا أفعل ذلك إلا برهن، فأخبرته صلى الله عليه وسلم بقوله، فأمرني أن أذهب بدرعه الحديد إليه، فنزل قوله تعالى: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}. وقال أبو مسلم: أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا، فالذي نهى عنه الأسف لا النظر. {وَأْمُرْ أَهْلَكَ} أي أهل دينك {بِٱلصَّلوٰةِ}،

لئلا يهتموا بأمر المعيشة، ولا يلتفتوا لفت أرباب الثروة. {وَ ٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، أي على مشاقّها وثابر عليها غير مشتغل بأمر المعاش. {لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً}، أي لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك. {نَّحْنُ نَرْزُقُكَ} وإياهم، ففّرغ بالك بأمر الآخرة {وَ ٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ} أي العاقبة الجميلة لأهل تقوى الله تعالى.

{وَقَالُواْ} أي مشركو مكّة: {لَوْلاَ يَأْتِينَا بِأايَةٍ مِّن رَّبِّهِ}، أي هلا يأتينا محمد بآية تدل على صدقه في دعوى النبوة، وبآية مما اقترحناها. قال تعالى رداً عليهم: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلأُولَىٰ} أي ألم يكفهم اشتمال القرآن على بيان ما في التوراة، والإنجيل، وسائر الكتب السماوية في كونه آية دالة على صدق محمد، حتى طلبوا غيرها، فإن في الصحف الأولى: بشارة بصفة محمد، ونبوته، وبعثته، وأنباء الأمم الماضية، وإهلاكهم بتكذيب الرسل وجحود الآيات. {وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ}، أي ولو أنا أهلكنا أهل مكة في الدنيا بعذاب مستأصل من قبل مجيء محمد اليهم بالقرآن، {لَقَالُواْ} يوم القيامة: {رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا} أي لِمَ لمْ تُرسل إلينا في الدنيا، {رَسُولاً} مع كتاب، {فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ}، أي فنطيع رسولك ونؤمن بكتابك {مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ}، أي أن يحصل لنا الذل بالعذاب في الدنيا {وَنَخْزَىٰ}. أي أن يحصل لنا الفضيحة بدخول النار اليوم، ولكنا لم نهلكهم قبل إتيان البينات، فانقطعت معذرتهم، فعند ذلك قالوا: {بَلَىٰ قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْء} (الملك: 9) .

روي أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة: الهالك، في الفترة يقول لم يأتني رسولٌ وإلاّ كنت أطوع خلقك لك، والمغلوب عقله، يقول: لم تجعل لي عقلاً أنتفع به، ويقول الصبي: كنت صغيراً لا أعقل، فترفع لهم نار، ويقال لهم: ادخلوها، فيدخلها من كان في علم الله أنه سعيد، ويبقى من في علمه أنه شقي، فيقول الله تعالى لهم: عصيتم اليوم، فكيف برسلي لو أتوكم». {قُلْ} لأولئك الكفرة المتمردين: {كُلٌّ} أي كل واحد منا ومنكم {مُّتَرَبِّصٌ} أي منتظر لما يؤول إليه أمرنا وأمركم. إما قبل الموت: بسبب الأمر بالجهاد، أو بسبب ظهور القوة، وإما بالموت: فإن كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه. وإما بعد الموت: بظهور أمر الثواب والعقاب، فيظهر على المحق أنواع كرامة الله تعالى، وعلى المبطل أنواع إهانته. {فَتَرَبَّصُواْ}. وقرىء «فتمتعوا». {فَسَتَعْلَمُونَ}، عن قريب بوعد من الله لا خلف فيه، {مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَاطِ ٱلسَّوِيِّ} أي العدل. وقرىء «السواء» أي

الوسـط الجيـد. وقرىـء «السـوء»، و «السـوأى»، و «السـوي»، تصـغير السـوء {وَمَـنِ ٱهْتَـدَىٰ} إليـه أنحـن أم أنتـم؟ وهـذا تهديـد الكفار.